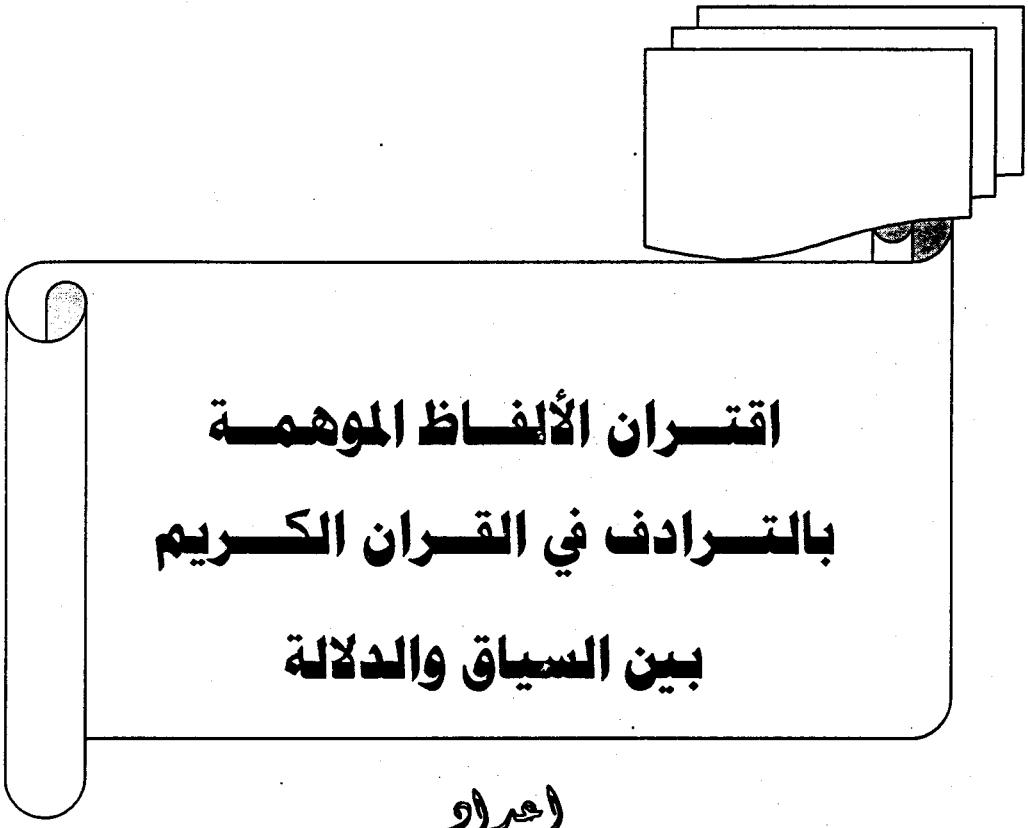

اقتران الألفاظ الموهمة بالترادف في القران الكريم بين السياق والدلالة

إعداد

د/ صلاح احمد رمضان حسين

مدرس البلاغة والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بقنا

لجنة التحكيم

أ.د/ فتحى عبد القادر فريد	عضو اللجنة العلمية الدائمة
أ.د/ أحمد عبد الجواد محمد عكاشة	عضو اللجنة العلمية المحكمة

المقدمة

نحمد الله تعالى ونثنى عليه بما هو أهله، ونصلى ونسلم على صفوة خلقة وإمام أنبيائه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد ...

فيقول ابن عطية الأندلسي في مقدمة تفسيره : " كتاب الله لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد، ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق،وجودة القريحة، وميز الكلام " [1]

فكل لفظة في كتاب الله المعجز، بل كل حرف وضع في حاق موضعه بدقة فائقة ليؤدى دلالة محددة ومعنى مقصوداً، بحيث تؤمن أن هذا المعنى كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها، وهذا موضع الإعجاز فيه.

ولا يمارى ذو نهية وبصيرة أن الخطوة الأولى في معرفة إعجاز القرآن هي الوقوف على معاني ألفاظه ؛ لتحديد دلالتها بدقة، ولهذا يقول الراغب الأصفهاني :" أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانية كتحصيل اللبن في كونه من أول المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه، وليس ذلك نافعاً في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع، فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته، وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم". [2]

ومن هذا المنطلق والمنهج الذي ينتصر للدقة القرآنية في توظيف الألفاظ والمفردات تأتي هذه الدراسة وعنوانها : (اقتران الألفاظ الموهمة بالترادف في القرآن الكريم بين السياق والدلالة)

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبن عطية الأندلسى جـ ١ صـ ٥٢

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى صـ ٦ .

كواحدة من الدراسات التي تحاول تلمس الفروق الدقيقة بين الألفاظ المتقاربة في المعنى والتي تسعى إلى الكشف عن الظلال والإيحاءات بين الألفاظ التي يوهم ظاهرها الترادف .

وهذا البحث على الرغم من وعورة مسلكه بحث في إعجاز القرآن –لا ريب – ذلك أن تحديد المعاني من أعظم أسباب الإجادة في صناعة الكلام، فما أجل خطره حينما نستطيع أن نعرف في لمحة الكلمة التي يتطلبها التعبير دون غيرها، أو التي تصور ما في النفس تصويراً صحيحاً، لا أن نختار من طائفة من الكلمات أية كلمة كيفما جاءت ظانين أن كل واحدة منها كفيلة بأداء المراد.[1]

وغير خاف على أهل التخصص وأرباب الفن أن هناك دراسات ومؤلفات حديثة للترادف في القرآن الكريم سبقت هذه الدراسة .[2] وتكاد هذه الدراسات تلتقي في منهجها وهو استقراء بعض المفردات التي تحتمل الترادف في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، ومقارنة السياق بالسياق والدلالة بالدلالة بهدف الكشف عن الفروق الدقيقة والإيحاءات الخاصة في كل لفظة، مثل الفرق بين :الرؤيا والحلم، والمطر والغيث، والريب والشك، والنأي والبعد، وجاء وأتى ... وغير ذلك .

لكن الجديد والمختلف في منهجنا وتناولنا من خلال هذه الدراسة – كما يبدو من عنوانها– جمع الألفاظ التي يوهم ظاهرها الترادف والتي اقترنت بالذكر في موضع واحد، وسياق واحد سواء أكان ذلك بطريق العطف بين المفردات أم بغيره، بغية الكشف عن الفروق الدقيقة بين الألفاظ، ومحاولة الوقوف على السر في الجمع بينهما، مع تتبع سياقات اللفظة في القرآن الكريم للتأكيد على معناها الدقيق، ومن الأمثلة على ذلك :

---

(١) ينظر الترادف، للأستاذ على الجارم ص ٣٣٠ بحيث منشور في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد الأول ١٩٣٤م

(٢) منها على سبيل المثال :

– الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، للأستاذ / محمد نور الدين المنجد

– القرآن والترادف اللغوي، للدكتور / السيد خضر

– الإعجاز البياني ومسائل نافع بن الأزرق، للدكتورة / عائشة عبد الرحمن

– الترادف فى الحقل القرآني، د / عبد العال سالم مكرم

– دراسة تأصيلية لإشكالية الترادف في تفسير المفردة القرآنية د / عامر مهدي العلواني

قوله تعالى : (فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ) (١)

وقوله تعالى : (وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا) (٢)

وقوله تعالى : (فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) (٣)

وقوله تعالى : (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ) (٤)

وقوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا) (٥)

.. وغيرها من الألفاظ المقترنة والتي يوهم ظاهرها الترادف .

وقد اعتمدت في ضبط هذا المنهج على أمرين :

الأول : معرفة الأصل اللغوي للكلمة، وذلك بالرجوع إلى معاجم اللغة اعتماداً على مصادر أساسية في مقدمتها : لسان العرب لابن منظور، ومقاييس اللغة لابن فارس ... وغيرها من كتب المعاجم، إضافة إلى كتب الفروق اللغوية مثل : الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، والمفردات في غريب القرآن للأصفهاني، وأيضا كتب التفاسير المختلفة .

الثاني : دراسة السياق الذي يرد فيه اللفظ،مع تتبع المواضع التي ورد فيها في القرآن الكريم، ومن المقرر أنه لا يكفى لتحديد دلالة أي لفظة الاحتكام إلى الأصل اللغوي فقط، بل يجب الاحتكام إلى النص والسياق معاً كما تقول بنت الشاطئ : " وواضح أنه لا سبيل إلى دراسة أي نص في لغة ما دون فقه لألفاظه في لغته، ثم يكون للنص بعد ذلك أن يحدد لكل لفظ دلالته الخاصة من شتى الدلالات المعجمية، أو يضيف إليها ملحظاً ينفرد به . والقول بدلالة خاصة للكلمة القرآنية لا يعنى تخطئة سائر الدلالات المعجمية، كما أن إيثار القران لصيغة بعينها لا يعني تخطئة

(١) البقرة / ١٠٩

(٢) النساء / ١١٢

(٣) طه / ١١٢

(٤) يوسف / ٨٦

(٥) العنكبوت / ١٤

سواها من الصيغ في فصحى العربية، بل يعنى أننا نقدر لهذا القرآن معجمه الخاص وبيانه المعجـــز، فنقول إن هذه الصيغة أو الدلالة قرآنية ".[1]

.. وقد قدمت لهذه الدراسة بتمهيد تعرضت فيه لمفهوم (الترادف) وآراء العلماء فيه وموقف الدراسة ورؤيتها من هذه القضية

وأخيراً : فإن كان ما بذلته من جهد في هذه الدراسة دون ما يليق بجلال القـــرآن الكـــريم وإعجازه، فحسبي أني أخلصت النية، وأسأل الله أن يثيبني بحسن النية إن فاتني حسن العمل .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

د / صلاح أحمد رمضان حسين

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم د / عائشة عبد الرحمن ٢/ ٧-٨

التمهيد

الترادف في اللغة :

جاء في لسان العرب : الرّدف : ما تبع الشيء، وكل شيء تبع شيئاً فهو ردفه وإذا تتابع شيء خلف شيء فهو الترادف ..... فالترادف : التتابع، ومن ذلك قوله تعالى : (بألف من الملائكة مردفين)[1] أي متتابعين يأتون فرقة بعد فرقة. [2]

وقال ابن فارس " الراء، والدال، والفاء، أصل واحد مطرد يدل على إتباع الشيء، فالترادف : التتابع ". [3]

الترادف في الاصطلاح :

قال الجرجاني في التعريفات : " المترادف ما كان معناه واحدا وأسماؤه كثيرة، وهو ضد المشترك أخذاً من الترادف الذي هو ركوب أحد خلف آخر، كأن المعنى مركوب واللفظان راكبان عليه، كالليث والأسد ". [4]

وقال السيوطي : " الترادف : هو الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد ".[5]

وعرفه الدكتور / رمضان عبد التواب : " الترادف : هو ألفاظ متحدة المعنى وقابلة للتبادل فيما بينهما في أي سياق ". [6]

آراء العلماء في الترادف، وموقف الدراسة في هذه القضية :

---

(١) سورة الأنفال / ٩

(٢) لسان العرب لابن منظور (ردف)

(٣) مقاييس اللغة لابن فارس (ردف)

(٤) التعريفات للجرجاني ٢٥٣/١

(٥) المزهر في علوم اللغة والأدب للسيوطي ٣١٦/١

(٦) فصول في اللغة العربية د / رمضان عبد التواب ص ٣٠٩ .

قضية الترادف من القضايا المهمة عند علماء اللغة والقرآن،وقد أخذت حيزاً كبيراً من اهتمامهم، ونتج عن ذلك تباين في آرائهم بين مقرٍّ بها جامع لألفاظها، ومنكر لها يحاول تلمس الفروق الدقيقة بين الألفاظ . (١)

وأحسب أن دراستنا هذه تهدف إلى محاولة الخروج من هذا الخلاف بالمسارعة والكشف عن موقفها ومنهجها وهو نفى وقوع الترادف في القرآن الكريم، وما يحفزنا لهذا الاستهلال هو إيماننا التام بأن لغة القرآن الكريم لغة محكمة ذات نظام خاص في المفردات والإيقاع، كما أن دلالة الكلمة في التركيب القرآني ذات ظلال وإيحاءات سياقية، لذا لا يكفى لتحديد دلالتها الاحتكام إلى المعجم فقط بل يجب الاحتكام إلى النص والسياق معاً .

فنص القرآن الكريم نص محكم.. معجز .. وضع كل حرف وكل لفظ فيه بنظام دقيق؛ لأنه كلام الله تعالى وصفته، وإذا كنا لا نجد في خلق الله تفاوتاً أو شذوذاً كما في خلق الإنسان وغيره، فهل يمكن أن نجد شيئاً من ذلك فيما هو أكمل من ذلك، في كلامه وصفته ؟ ! (٢)

وهذا المنهج الذي نؤمن به –فكرة وتطبيقاً– هو منهج القرآن ذاته، ومنهج جمهور البلاغيين والمحققين من العلماء .

فالنظم القرآني – نفسه – نراه يشدد على ضرورة الدقة في استخدام الألفاظ، ويطلب من المتكلمين مراعاتها، قال تعالى : (لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا) .(٣)

فلفظ (راعنا) وإن كان يحتمل المراعاة والانتظار، فإنه لما احتمل الهُزْء والسب في بعض اللهجات، نُهوا عن إطلاقه لما فيه من احتمال المعنى المحظور إطلاقه ... وهذا يدل على أن كل لفظ احتمل الخير والشر فغير جائز إطلاقه حتى يقيد بما يفيد الخير . (٤)

---

(١) من المنكرين للترادف : ثعلب ت ٢٩١ هـ، وابن فارس ت ٣٩٥ هـ، وأبو هلال العسكرى ت ٣٩٥هـ، وأبو على الفارس .... وغيرهم ومن المؤيدين للترادف : سيبويه ت ١٨٠ هـ، وأبو زيد الأنصاري ت ٢١٥ هـ وابن جني ت ٣٩٥ هـ، والرماني ت ٣٨٤ هـ، وغيرهم .

(٢) ينظر : القرآن والترادف اللغوى د / السيد خضر، ص ١١ .

(٣) البقرة /١٠٤.

(٤) ينظر : أحكام القرآن للجصاص ٧١/١، ومن بلاغة القرآن د / أحمد بدوى ص ٥٢ .

وفى موضع آخر نرى النظم القرآني يؤكد على تحري الدقة في استخدام الألفاظ قال تعالى : (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) . (١)

فإذا كان التعبير القرآني يؤكد ويشدد على التزام الدقة في استخدام الألفاظ وفق دلالاتها التي قد تفهم من اللفظ أو تقصد فيه، فإن التزامه بهذا النهج – دون شك – أولى وأجدر .

ثم إن جمهور البلاغيين والمحققين من العلماء ينكرون الترادف في القرآن الكريم ... فالإمام الخطابي يقول في شأن الترادف : " اعلم أن عمود هذه البلاغة هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعني الذي يكون فيه فساد الكلام وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة ؛ ذلك أن في الكلام ألفاظا متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان الخطاب ... والأمر فيها وفى ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك، لأن لكل لفظة فيها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها وإن كانا يشتركان في بعضها ". (٢)

والإمام عبد القاهر الجرجاني يقول في سياق حديثة عن خصال بلاغة الخطاب : " ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، وتختار له اللفظ الذي هو أخص به، وأكشف عنه، وأتم له، وأحرى بان يكسبه نبلا، ويظهر فيه مزية ".(٣)

فانظر قوله: (هو أخص به) انه القاطع بأن لكل معني لفظا يخصه لا يكون غيره له،ولا يكون هو لغيره من المعاني، وقضي بجملة واحدة فتية في قضية ما يعرف بالترادف فكان المبين الموجز. (٤)

ومن أبرز البلاغيين المنكرين للترادف ــ منهجاً وتطبيقاً ــ أبو هلال العسكري صاحب كتاب " الفروق اللغوية "، والذي ألّفه بعد أن لمس حاجة الدرس اللغوي لبيان الفروق بين الألفاظ

---

(١) الحجرات /١٤.

(٢) إعجاز القرآن للخطابي ص ٢٩، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن

(٣) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ٥٢/١

(٤) ينظر : شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية، د / محمود توفيق سعد، ص ٥٢

المتقاربة، وهو ما يفهم من قوله " إني ما رأيت نوعاً من العلوم وفناً من الآداب إلا وقد صنف فيه كتب تجمع أطرافه، وتنظم أصنافه، إلا الكلام في الفرق بين معانٍ تقاربت حتى أشكل الفرق بينها، نحو : العلم والمعرفة، واللفظة والذكاء، و الإدارة والمشيئة، والغضب والسخط " . (١)

وقد حاول العسكري وضع منهج يقوم على معايير للتفريق بين الألفاظ المتقاربة في المعنى وهي:-

١- اختلاف ما يستعمل عليه اللفظان اللذان يراد الفرق بين معنيهما، وهو أساس نحوي، إذ مثل العسكري بالفرق بين : العلم والمعرفة . إذا أن العلم يتعدى إلى مفعولين، والمعرفة تتعدى إلى مفعول واحد، فتصرفهما على هذا الوجه، واستعمال أهل اللغة إياهما عليه يدل على الفرق بينهما في المعنى .

٢- اعتبار صفات المعنيين اللذين يطلب الفرق بينهما، كالفرق بين الحلم والإمهال، وذلك أن الحلم لا يكون إلا حسناً، والإمهال يكون حسناً وقبيحاً .

٣- اعتبار ما يؤول إليه المعنيان، كالفرق بين المزاح والاستهزاء، فالمزاح لا يفضي إلى التحقير، أما الاستهزاء فيقتضي تحقير المستهزأ به .

٤- اعتبار الحروف التي تعدى بها الأفعال، كالفرق بين العفو والغفران،تقول :عفوت عنه، فيقتضى ذلك أنك محوت الذم والعقاب عنه،وتقول : غفرت له فيقتضي ذلك انك سترت له ذنبه ولم تفضحه به .

٥- اعتبار النقيض، كالفرق بين الحفظ والرعاية، وذلك أن نقيض الحفظ الإضاعة، ونقيض الرعاية الإهمال .. والحفظ صرف المكاره عن الشيء لئلا يهمك، والرعاية فعل السبب الذي يصرف به المكاره عنه .

٦- اعتبار الاشتقاق، كالفرق بين السياسة والتدبير، فالسياسة هي النظر في الدقيق من الأمور، وهي مشتقة من السوس هذا الحيوان المعروف ولهذا لا يوصف الله تعالى بالسياسة .

---

(١) الفروق الغوية لابى هلال العسكري ص ٢١

٧- ما توجبه صيغة اللفظ من الفرق بينه وبين ما يقاربه، كالفرق بين الاستفهام والسؤال، فالاستفهام لا يكون إلا لما يجهله المستفهم أو يشك فيه، فصيغة الاستفهام وهو استفعال، والاستفعال للطلب، أما السؤال فيجوز أن يسأل فيه السائل عما يعلم وعما لا يعلم .

٨- اعتبار حقيقة اللفظين أو أحدهما في أصل اللغة، كالفرق بين : الحنين والاشتياق، فأصل الحنين في اللغة هو صوت الإبل حينما تشتاق إلى أوطانها . (١)

وعلى الرغم من وضع العسكري لهذا المنهج الدقيق : إلا أنه أغفل دور السياق في التفريق بين الألفاظ المتقاربة في المعنى ...وغير خاف أن السياق أساس مهم لتحديد الدلالة بدقة، وقد نبه على ذلك الزركشي في البرهان، فقال: " إنها – أي دراسة السياق – ترشد إلى تبين المجمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظيره، وغالط في مناظراته، وانظر إلى قوله تعالى : (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) (٢) كيف تجد سياقه يدل أنه الذليل الحقير " . (٣)

وعلى أية حال فالعسكري وضع بين أيدينا كنزاً لغوياً من شأنه إثراء البحوث والدراسات المعنية بإبراز الفروق الدقيقة بين الألفاظ .

ومن المحدثين الذين أنكروا الترادف في القرآن الكريم، الدكتورة / عائشة عبد الرحمن، وهي ممن أنكرته في أصل العربية كما أنكرته في القرآن، ولها محاولات قيمة في تبيان الفروق بين الألفاظ الموهمة بالترادف، ومما تقوله عن إنكار الترادف في اللغة ثم في القرآن : " الأمر كذلك في ألفاظ

(١) الفروق اللغوية للعسكري ص ٢٥، ٢٦

(٢) الدخان /٤٩

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢/٢٠٠

القرآن، ما من لفظ فيه يمكن أن يقوم غيره مقامه، وذلك ما أدركه العرب الخلص الفصحاء الذين نزل فيهم القرآن" .[1]

ومن المحدثين الذين أنكروا الترادف في القرآن الكريم أيضا، الدكتور / أحمد بدوى، يقول : " يتأنق أسلوب القرآن في اختيار ألفاظه، ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها يستخدم كلاً حيث يؤدى معناه في دقة فائقة، تكاد بها تؤمن بأن هذا المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذي وفّت به أختها، فكل لفظة وضعت لتؤدى نصيبها من المعنى أقوى أداء، ولذلك لا تجد في القرآن ترادفاً، بل فيه كل كلمة تحمل إليك معنى جديداً.[2]

فهذا ــ وما سبق ــ كما ترى جدُّ بيّن في أنه ما من كلمة في البيان العلي المعجز يمكن أن تقوم مقامها كلمة أخرى وإن شاكلتها والتقت معها في أصل معناها، فلكل كلمة من تنغيمها ومضمونها وشكلها من السمات الخاصة التي لن تكون مجتمعة في غيرها البتة، وإذا ما قدّر في البيان العالي من الأدب لناقد حصيف نافذ البصيرة أن يقيم كلمة في قصيدة ما لشاعر فحل مقام كلمة اختارها الشاعر، فكانت كلمة الناقد آنس بالسياق وأكرم عطاء ، فإن ذلك مما قد يعترى الشاعر وإن كان الفحل، لكن ذلك لست بالواجده البتة في بيان الوحي قرآنا وسنه . [3]

والدراسة تحاول – بتوفيق الله تعالى – في الصفحات القادمة أن تتلمس الفروق الدقيقة بين الألفاظ الموهمة بالترادف في القرآن الكريم ؛ لنؤكد على براءة القرآن العظيم من دعوى ما يسمى بالترادف، ونبرهن على دقة النظم القرآني وإعجازه، فنسأل الله التوفيق والسداد .

---

(١)الإعجاز البياني للقرآن . د / عائشة عبد الرحمن ص ١٩٤

(٢) من بلاغة القرآن د / أحمد بدوى ص ٥١ .

(٣) ينظر : شذرات الذهب، د / محمود توفيق سعد ص ٥٢

١- الفرق بين : العفو والصفح .

قال تعالى : (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). (١)

ورد في سبب نزول هذه الآية أن نفراً من اليهود قالوا " لحذيفة بن اليمان " و " عمار بن ياسر " بعد وقعة أحد : لو كنتم على الحق ما هزمتم، فارجعا إلى ديننا فنحن أهدى سبيلاً منكم . فقال لهم عمار : كيف نقض العهد فيكم ؟ قالوا : شديد . قال فإني قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ما عشت، فقالت اليهود : أما هذا فقد صبأ، وقال حذيفة : أما أنا فقد رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخواناً .. ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه بذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد أصبتما الخير وأفلحتما فأنزل الله تعالى الآية . (٢)

ومعنى الآية : لقد تمني كثير من اليهود أن يردوكم أيها المسلمون إلى الكفر بعد إيمانكم، مع أنه قد تبين لهم من كتابهم – نفسه – أنكم على الحق، وما ذلك إلا لأنهم يحسدونكم، فأعرضوا عنهم واعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بحكمه فيهم وهو قتالهم ـــ وقد جاء ووقع ـــ لأن الله قادر لا يعجزه شيء .

---

(١) البقرة /١٠٩ – وقد اقترن عطف "الصفح" على "العفو" في ثلاثة مواضع أخرى هي :

قوله تعالى : (فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (المائدة / ١٣)

وقوله تعالى : (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ) (النور / ٢٢)

وقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ

اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (التغابن / ١٤)

(٢) راجع : تفسير البغوي ١٠٥/١، وتفسير أبي السعود ١٤٥/١

و" العفو " و "الصفح "من الألفاظ المتقاربة في المعنى، وقد عطف الصفح على العفو، ومن المقرر أن العطف يقتضى المغايرة، فما الفرق بينهما ؟

العفو : هو ترك عقوبة المذنب والتجافي عن ذنبه، قال تعالى : (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) [1]،وقال أيضاً : (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ) . [2]

والعفو في اللغة: هو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه، وأصله المحو والطمس . يقال : عفا يعفو عفواً فهو عاف وعفو، والعفو من أسماء الله تعالى وهو من أبنية المبالغة " قال ابن الأنبا ري في قوله تعالى : (عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُم) :محا الله عنك، مأخوذ من قولهم : عفت الرياح الآثار إذا درستها ومحتها، ومنه حديث أم سلمه رضي الله عنها : " قلت لعثمان : لا تُعْف سبيلاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لحبها " أي : لا تطمسها . [3]

وذكر الكفوي في الكليات أن " العفو " كف الضرر مع القدرة عليه، وكل من استحق عقوبة فتركها فهذا الترك عفو " . [4]

وقال أيضاً : " العفو عن الذنب يصح رجوعه إلى ترك ما يستحق المذنب من العقوبة وإلى محو الذنب وإلى الإعراض عن المؤاخذة كما يعرض المرء عما يسهل على النفس بذله ". [5]

أما الصفح : فهو ترك لوم المذنب وتثريبه وعدم مواجهته بذنبه، وهو أبلغ من العفو، فقد يعفو الإنسان ولا يصفح، ولذا قال تعالى : (فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ).[6]

وقال تعالى : (فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) [7] [8]

---

(١) الشورى /٤٠

(٢) البقرة /٢٣٧

(٣) راجع : اللسان (عفا)، والنهاية لابن الأثير ٣/٢٦٥

(٤) الكليات للكفوى ص ٥٣، والمفردات للراغب ص ٣٣٩

(٥) السابق ص ٦٣٢.

(٦) الزخرف / ٨٩.

(٧) الحجر /٨٥.

(٨) راجع : المفردات للراغب ص ٢٨٢، والفروق اللغوية للعسكرى ص ٢٣٦.

قال الكفوي : " الصفح أبلغ من العفو ؛ لأن الصفح تجاوز عن الذنب بالكلية واعتباره كأن لم يكن ، أما العفو فأنه يقتضى إسقاط اللوم والذم فقط ولا يقتضى حصول الثواب ". (١)

قال القرطبي : " الصفح : إزالة أثر الذنب من النفس، صفحت عن فلان : إذا أعرضت عن ذنبه، وقد ضربت عنه صفحاً ". (٢)

وأصل الصفح في اللغة أن تنحرف عن الشيء فتوليه صفحة وجهك أي ناحيته، وهو مصدر صفح يصفح إذا أعرض عنه ... والصفوح : الكريم لأن يصفح عمن جنى عليه . (٣)

والسر في عطف " الصفح " على "العفو" والجمع بينهما : هو الترقي والتدرج في الأمر بمكارم الأخلاق من الحسن إلى الأحسن، ومن الفضل إلى الأفضل .

قال الطاهر بن عاشور : " عطف الأمر بالصفح على الأمر بالعفو، لأن الأمر بالعفو يستلزمه، ولم يستغن بـ "اصفحوا" لقصد التدريج في أمرهم بما قد يخالف ما تميل إليه أنفسهم من الانتقام تلطفاً من الله مع المسلمين في حملهم على مكارم الأخلاق ". (٤)

وإنما أمر المسلمون بالعفو والصفح عنهم في هذا الموضع خاصة، لأن ما حكي عن أهل الكتاب هنا مما يثير غضب المسلمين لشدة كراهيتهم للكفر، قال تعالى : (وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ) (٥) فلا جرم أن كان من يود لهم ذلك يعدونه أكبر أعدائهم، فلما كان هذا الخبر مثيراً للغضب خيف أن يفتكوا باليهود، وذلك ما لا يريده الله منهم ؛ لأن الله أراد منهم أن يكونوا مستودع عفو وحلم حتى يكونوا قدوة في الفضائل . (٦)

---

(١) الكليات ص ٦٦٦ .

(٢) تفسير القرطبي٢/٧١

(٣) راجع : اللسان (صفح)، والمفردات للراغب ص ٢٨٢

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور ١ /٦٧١

(٥) الحجرات / ٧

(٦) التحرير والتنوير ١/٦٧٠

وقال صاحب المنار : " وفى أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة ؛ لأن الصفح إنما يطلب من القادر على خلافه، كأنه يقول : لا يغرنّكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم فإنكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، فعاملوهم معاملة القوي العادل للضعيف الجاهل . وفى إنزال المؤمنين على قلتهم منزلة الأقوياء، ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء ؛ إيذان بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الإلهية وأن العزة لهم ما ثبتوا على حقهم، ومهما يتصارع الحق والباطل فإن الحق هو الذي يصرع الباطل، وإنما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه ". (١)

٢ – الفرق بين الرأفة والرحمة .

قال تعالى : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)(٢)

وقد اقترن ذكر الرأفة والرحمة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم (٣) وهذا الاقتران دليل قوى على تغايرهما في الدلالة فما الفرق بينهما ؟

---

(١) تفسير المنار / محمد رشيد رضا ١ /٤٢١

(٢) البقرة / ١٤٣

(٣) منها قوله تعالى : (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ
قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (التوبة / ١١٧)
وقوله تعالى : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) التوبة/١٢٨)
وقوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) (الحج/٦٥)

قال ابن عاشور : " الرءوف والرحيم صفتان مشبَّهتان مشتقة أولاهما من الرأفة والثانية من الرحمة ... والرأفة مفسرة بالرحمة فى إطلاق كلام الجمهور من أهل اللغة وعليه درج الزجاج، وخص المحققون من أهل اللغة الرأفة بمعنى رحمة خاصة، فقال أبو عمرو بن العلاء : الرأفة أكثر من الرحمة أى : أقوى ـــ أى هى رحمة قوية وهو معنى قول الجوهرى : الرأفة أشد الرحمة، وقال فى " المجمل " الرأفة أخص من الرحمة ولا تكاد تقع فى الكراهية، والرحمة فى الكراهية للمصلحة، فاستخلص القفال من ذلك أن قال : الفرق بين الرأفة والرحمة أن الرأفة مبالغة فى رحمة خاصة وهى دفع المكروه وإزالة الضرر، كقوله تعالى : (وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)[1]، أى لا ترأفوا بهما فترفعوا الجلد عنهما . وأما الرحمة : فاسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى ويدخل فيه الإفضال والإنعام، وهذا أحسن ما قيل فيها، واختاره الفخر، وعبد الحكيم، وربما كان مشيراً إلى أن بين الرأفة والرحمة عموماً وخصوصاً مطلقاً ... وأياً ما كان معنى الرأفة فالجمع بين رءوف ورحيم فى الآية يفيد توكيد مدلول أحدهما بمدلول الآخر . وأما على اعتبار تفسير المحققين لمعنى الرأفة والرحمة فالجمع بين الوصفين لإفادة أنه تعالى يرحم الرحمة القوية لمستحقها ويرحم مطلق الرحمة دون ذلك".[2]

وذكر العسكري : " أن الرأفة أبلغ من الرحمة، ولهذا قال أبو عبيدة : إن فى قوله تعالى : " رءوف رحيم " تقديماً وتأخيراً، أراد أن التوكيد يكون فى الأبلغ فى المعنى، فإذا تقدم الأبلغ فى اللفظ كان المعنى مؤخراً .. وقيل : الرأفة أشد الرحمة، وقيل : الرحمة أكثر من الرأفة والرأفة أقوى منها في الكيفية ؛ لأنها عبارة عن إيصال النعم صافية عن الألم، والرحمة إيصال النعم مطلقاً وقد يكون مع الكراهة والألم للمصلحة كقطع العضو المجزوم". [3]

وقوله تعالى : (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) (الحديد / ٩)

(١) النور / ٢

(٢) التحرير والتنوير ٥٢/٢

(٣) الفروق اللغوية للعسكرى ص ١٩٦

فالرأفة تقتضى إبعاد السوء قبل المصيبة، فصفة الرءوف – إذن– متعلقة بالوقاية، وصفة الرحيم متعلقة بالعلاج .. فالرأفة تعنى ألا تقع في الخطأ، والرحمة تعنى إن وقعت في الخطأ فلا بد من معالجته، فمعالجة الخطأ رحمة والحيلولة دون الوقوع فيه رأفة، والله عز وجل رءوف رحيم .

ولنضرب مثلاً على ذلك : فالأب حريص على أولاده ولا سيما فى أيام الشتاء من أن يصيبهم البرد وما يترتب عليه من أمراض، فالحرص البالغ من الأب على ألا يصاب ابنه بمرض هذا من الرأفة، أما حينما يصاب الابن بمرض ويتفطر قلب الأب له فهذا من باب الرحمة .... فالرحمة تخفيف الألم عن مصاب واقع، بينما الرأفة هى الحيلولة بين المتعطف عليه وبين الوقوع فى الشدة، فالرأفة متعلقة بالوقاية بينما الرحمة متعلقة بالعلاج.

ومن الفروق الدقيقة بين الرأفة والرحمة : أن الباعث فى الرحمة هو المرحوم، وأما الباعث فى الرأفة هو الراحم .. والمرحوم الذى هو الإنسان إذا وقع فى مصاب شديد يحتاج إلى الرحمة، فالله رحيم .. أما قبل أن يصاب الإنسان فمن كمال الله – عز وجل – حرصه على سلامته وهذا الحرص يقتضى الرأفة، فالانطلاق فى الرأفة من الله، وفى الرحمة من العبد .

قال الأصفهاني : " الرحمة : رقة تقتضى الإحسان إلى المرحوم وقد تستعمل تارة فى الرقة المجردة، وتارة فى الإحسان المجرد من الرقة نحو : رحم الله فلاناً، إذا وصف به الباري فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة، وعلى هذا روى أن الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميين رقة وتعطف ". (١)

والمتأمل فى الآيات التي اقترن فيها ذكر الرأفة والرحمة يجد أنها صيغت بأسلوب التأكيد، تأمل قولة تعالى : (إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) (البقرة / ١٤٣)

: (إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (التوبة / ١١٧)

: (إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) (الحج / ٦٥)

: (وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) (الحديد / ٩)

---

(١) المفردات للراغب ص ١٩١

: (حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (التوبة / ١٢٨)

ومن أرأف وأرحم بالعباد والمؤمنين من الله ورسوله ؟ !

٣- الفرق بين الدعاء والنداء

قال تعالى : (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) . (١)

النعيق : صوت الراعي بالغنم، ومعنى الآية : ومثلك يا محمد ومثل الكفار في وعظهم ودعائهم إلى الله كمثل الراعي الذي ينعق بالغنم وهى لا تسمع إلا صوتاً، فصار الداعي إلى الله وهو الرسول صلى الله عليه وسلم بمنزلة الراعي، وصار الكفار بمنزلة الغنم المنعوق بها .

ووجه المثل أن الغنم تسمع الصوت ولا تفطن للمراد، وكذلك الكفار يسمعون صوت الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن لا ينتفعون به .. وقيل معناه : ومثل الذين كفروا فى قلة عقلهم وفهمهم عن الله ورسوله كمثل المنعوق به من البهائم التي لا تفهم من الأمر والنهى إلا الصوت، فيكون المعنى بالمثل المنعوق به خارج عن الناعق .. وقيل معناه : ومثل الذين كفروا في دعائهم الأصنام التي لا تفقه ولا تعقل كمثل الناعق بالغنم فهو لا ينتفع من نعيقه بشيء غير أنه غني عن الدعاء، فكذلك الكافر ليس له من دعاء الأصنام وعبادتها إلا العناء والبلاء ... والفرق بين هذا القول والذي قبله،أن المحذوف هنا هو المدعو وهى الأصنام، وفى القول الأول المحذوف هو الداعي وهو الرسول صلى الله عليه وسلم . (٢)

والفرق بين الدعاء والنداء : أن النداء هو رفع الصوت بماله معنى، والعربي يقول لصاحبه : ناد معي ليكون ذلك أندى لصوتنا، أي أبعد له . والدعاء يكون برفع الصوت وخفضه، يقال : دعوته من بعيد، ودعوت الله في نفسي، ولا يقال : ناديته في نفسي، وأصل الدعاء طلب الفعل، ولذا لا يسند النداء إلى الله سبحانه بخلاف الدعاء، قال تعالى : (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ) (٣)

---

(١) البقرة /١٧١

(٢) راجع : تفسير الخازن ٢٦/١

(٣) يونس / ٢٥

وقال أيضاً : (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ) [1] [2]

وقال الراغب : " النداء " رفع الصوت وظهوره، وقد يقال ذلك للصوت المجرد وإياه قصد بقوله : (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً) أي : لا يعرف إلا الصوت المجرد دون المعنى الذي يقتضيه تركيب الكلام، أما الدعاء فلا يكون إلا حيث يفهم منه الإقبال ". [3]

وقد بين الدكتور / الخضري، السرّ في عطف النداء على الدعاء والجمع بينهما فقال : " فلو اقتصر على مجرد الدعاء لأوهم أن لدى الكافرين وعياً بما يدعون إليه، وهو يتنافى مع قوله : " فهم لا يعقلون " ولو أقتصر على النداء وحده لأوهم ذلك أن دعوة القرآن ليست من الوضوح بحيث يعيها ويستجيب لها من كفر بها، هذا في المشبه، وفى المشبه به نجد هذا المعنى أيضاً فالراعي يدعو بصوتٍ واضحٍ مفهوم، ولكن دعاءه يتحول لدى البهائم مجرد أصوات خالية من المضمون، وليس ذلك عيباً فى دعوة الراعي، وإنما العيب فيمن سمع هذا الدعاء ". [4]

٤- الفرق بين : الوهن والضعف

قال تعالى : (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) [5]

نفى الله سبحانه وتعالى في هذه الآية عن المؤمنين الصادقين ثلاثة أوصاف لاتتفق مع الإيمان، حيث نفى عنهم " الوهن " و " الضعف " و "الاستكانة "، فما الفرق بينهما ؟

الضعف : ضد القوة، وهو من فعل الله تعالى، كما أن القوة من فعل الله، تقول : خلقه الله ضعيفاً أو خلقه قوياً، وفى القرآن : (وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا) [1] فالضعف نقصان القوة . [2]

---

(١) البقرة / ٢٢١

(٢) الفروق اللغوية للعسكرى ص ٣٨

(٣) المفردات للراغب ص ٤٨٦

(٤) الإعجاز فى نسق القرآن د / محمد الأمين الخضرى ص ٢١١

(٥) آل عمران / ١٤٦

والوهن : ضعف من حيث الخلق أو الخلق . [٣] وقال العسكرى : " والوهن هو أن يفعل الإنسان فعل الضعيف، تقول : وهن فى الأمر يهن وهناً وهو واهن، إذا أخذ فيه أخذ الضعيف، ومنه قوله تعالى : (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ) [٤] أي : لا تفعلوا أفعال الضعفاء وأنتم أقوياء ..... ويدل على صحة ذلك أنه لا يقال : خلق الله واهناً، كما يقال : خلقة الله ضعيفاً .... والوهن انكسار الحد والخوف ونحوه ". [٥]

والمستقرئ لمادة (وهن) واستعمالاتها في القرآن الكريم يلحظ أنها وردت ثمان مرات وتدل على معنيين :

الأول : الضعف في الخَلْق ... وقد جاء هذا المعنى في ثلاثة مواضع :

: (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) (مريم / ٤)

: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ) (لقمان / ١٤)

: (وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)(العنكبوت / ٤١)

والثاني : الضعف في الجانب النفسي والخلقي بسبب الخوف واليأس ونحوه، وقد جاء هذا المعنى في خمسة مواضع هي :

: (فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)(آل عمران ١٤٦

: (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (آل عمران / ١٣٩)

: (وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ) (النساء / ١٠٤)

: (فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ) (محمد / ٣٥)

: (ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ) (الأنفال / ١٨)

---

(١) النساء / ٢٨

(٢) راجع : المفردات للراغب ص ٢٩٥ . والفروق اللغوية للعسكرى ص ١١٥

(٣) راجع : المفردات للراغب ص ٥٣٥

(٤) آل عمران / ١٣٩

(٥) الفروق اللغوية ص ١١٦

وقد استعمل النظم القرآني مادة (وهن) في المعنى الثاني بأسلوب النهى والنفي،للإشارة إلى أن المؤمن ينبغي أن لا يتسرب إلى نفسه اليأس والخوف لأنه على الحق واليقين .. أما الوهن بمعنى الضعف في الخلق بسبب الكبر والحمل ونحوه فهذا مما لا دخل للمرء فيه، لأنه من فعل الله تعالى .

وإذا احتكمنا إلى سياق الآية – موضع الاستشهاد – لتحديد الدلالة بدقة، نرى أنها جاءت في سياق الحديث عن تسلية الله للمسلمين عما وقع في نفوسهم يوم" أحد" فقد ذكر ابن كثير، أنه لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقتل من قتل منهم، نادى الشيطان : ألا إن محمداً قد قتل، ورجع ابن " قميئة" إلى المشركين، فقال لهم : قتلت محمداً ، وإنما كان قد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فشجه فى رأسه، فوقع ذلك فى قلوب كثير من الناس، واعتقدوا أن رسول الله قد قتل، وجوزوا عليه ذلك، كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام، فحصل وهن وضعف وتأخر عن القتال، فأنزل الله – عز وجل – قوله : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ..... الآيات) . (١)

ثم قال تعالى – مسلياً للمسلمين عما وقع في نفوسهم يوم أحد من إشاعة قتل النبي صلى الله عليه وسلم : (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

فقد نفى الله عن المؤمنين الصادقين ثلاثة أوصاف فى الجهاد، نفى عنهم أولاً (الوهن) وهو اضطراب نفسي، وهلع قلبي، وخور في العزيمة، وعجز وجبن، ويبدأ من داخل الإنسان فيفقد: ثباته وعزيمته .. ونفى عنهم ثانياً : (الضعف) وهو نقصان القوة الجسدية نتيجة الوهن .. ونفى عنهم ثالثاً : (الاستكانة) وهى الرضا بالمذلة والخضوع للأعداء .

والذي يروعك ويأخذ بمجامع قلبك وعقلك، ويكشف لك إعجاز القرآن ودقته، ترتيب هذه الأوصاف الثلاثة (الوهن – الضعف – الاستكانة) في الذكر على حسب ترتيبها في الحصول، ذلك أن (الوهن) الذي هو خور في العزيمة، ويأس في النفس، وضعف في اليقين – إذا تمكن من

(١) تفسير ابن كثير ١/٤١٠

المرء أنتج (الضعف) الذي هو لون من الاستسلام وفشل المقاومة، ثم تكون بعدهما (الاستكانة) التي يكون معها الخضوع والمذلة لكل مطالب الأعداء، وإذا وصل المرء إلى هذه المرحلة في حياته، فإن الموت أكرم له من الحياة . (١)

فالعطف بين هذه الأوصاف الثلاثة للترقي والتدرج من الأدنى إلى الأعلى .

وأحسب أنه ظهر لك الآن الفرق بين هذه الأوصاف، ولماذا قرن الله بينهما في موضع واحد؟

يقول ابن عاشور : " جمع بين الوهن والضعف، وهما متقاربان تقارباً قريباً من الترادف، فالوهن : قلة القدرة على العمل وعلى النهوض بالأمر، وفعله كوعد، وورث، وكرم . والضعف : ضد القوة في البدن، وهما هنا مجازان، فالأول أقرب إلى خور العزيمة ودبيب اليأس في النفوس والفكر، والثاني أقرب إلى الاستسلام والفشل في المقاومة . وأما الاستكانة : فهي الخضوع والمذلة للعدو ... فإنه إذا خارت العزيمة فشلت الأعضاء وجاء الاستسلام فتبعته المذلة والخضوع للعدو". (٢)

فالوهن : يرتبط بالحالة النفسية وما يترتب عليها من انكسار في الحد، وخور في العزيمة، ويأس في النفس والفكر، وضعف في اليقين .

وأما الضعف : فيرتبط بالحالة الجسدية وهو ضد القوة في البدن ... ويترتب على الوهن والضعف (الاستكانة) وهي الخضوع والمذلة .

٥- الفرق بين : الموت والقتل

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ

(١) راجع : التحرير والتنوير ١١٩/٤

(٢) التحرير والتنوير ١١٨/٤

يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ) [1]

قال الرازي في سبب نزول هذه الآية : " اعلم أن المنافقين كانوا يعيرون المؤمنين في الجهاد مع الكفار بقولهم : (لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا) ثم إنه ظهر عن بعض المؤمنين فتور وفشل في الجهاد حتى وقع يوم " أحد " ما وقع، وعفا الله بفضله عنهم، ذكر في هذه الآية ما يدل على النهى في أن يقول أحد من المؤمنين مثل مقالتهم، فقال : يأيها الذين آمنوا لا تقولوا لمن يريد الخروج إلى الجهاد لو لم تخرجوا لما متم أو قتلتم، فإن الله هو المحيي والمميت، فمن قدر له البقاء لم يقتل في الجهاد، ومن قدر له الموت لم يبق وإن لم يجاهد، وهو المراد من قوله : (وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ)، كما أن الذي قتل في الجهاد لو أنه ما خرج إلى الجهاد لكان يموت لا محالة، فإذا كان لا بد من الموت فلأن يقتل في الجهاد حتى يستوجب الثواب العظيم خير له من أن يموت من غير فائدة، وهو المراد من قوله : (وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) [2]

والفرق بين الموت والقتل .. أن الموت : هو خروج الروح من الجسد تم تلف الجسد بعد ذلك ... والموت من فعل الله تعالى ولا يقدر عليه أحد سواه، قال تعالى : (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) [3]

أما القتل : فهو تلف الجسد ثم خروج الروح، وهو ما يسمى إزهاق الروح، أي إجبارها على الخروج من الجسد نتيجة إتلافه .

قال الراغب : " أصل القتل إزالة الروح عن الجسد كالموت، لكن إذا اعتبر بفعل المتولّى لذلك يقال قتل، وإذا اعتبر بفوت الحياة يقال موت ". [4]

---

(١) آل عمران / ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨

(٢) تفسير الرازى ٤٤/٩ .

(٣) الملك / ٢

(٤) المفردات للراغب ص ٣٩٣ . وراجع : الفروق للعسكرى ص ١٠٤

فالموت أعم من القتل،فكل قتل موت وليس كل موت قتل .. وعليه فلو قائل لمن مات حتف أنفه : إن الله قتله، كان معاباً عند أهل اللسان والفصاحة والبيان؛ لأن القتل من مقدور الإنسان والحيوان، وليس الموت كذلك، لذا نقول : إن زيداً قتل عمرا، ولا يصح أن نقول : إن زيداً أمات عمراً، لأن الموت من فعل الله ولا يقدر عليه أحد سواه .

أما ما جاء في القرآن الكريم من إضافة القتل إلى الله تعالى، فإنما يراد به اللعن والطرد والتعذيب والابتعاد من رحمته لا القتل بمعناه الحقيقي ؛ لأن القتل بمعنى إزهاق الروح من أعظم الكبائر، قال تعالى : (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا) [1] وقال تعالى : (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا) [2]

ومن دقة النظم في هذه الآيات، أنه قدم القتل على الموت في قوله : (وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ)، وقدم الموت على القتل في قوله : (وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

والسر في ذلك كما يقول ابن عاشور : " قدم القتل في الأولى والموت في الثانية اعتباراً بعطف ما يظن أنه أبعد عن الحكم، فإن كون القتل في سبيل الله سبباً للمغفرة أمر قريب، ولكن كون الموت في غير السبيل مثل ذلك أمر خفي مستبعد .. وكذلك تقديم الموت في الثانية، لأن القتل في سبيل الله قد يظن أنه بعيد عن أن يعقبه الحشر، مع ما في الآيات من التفنن ورد العجز على الصدر، وجعل القتل في مبدأ الكلام وعوده ". [3]

٦- الفرق بين الخطيئة والإثم .

قال تعالى : (وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا) [4]

ورد في سبب نزول هذه الآية والآيات التي قبلها أن " طعمة بن أبيرق " أحد " بني ظفر " سرق درعاً من جار له اسمه " قتادة بن النعمان " في جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتشر من خرق

(١) المائدة / ٣٢

(٢) النساء / ٩٣

(٣) التحرير والتنوير ١٤٣/٤

(٤) النساء / ١١٢

فيه، وخبأها عند " زيد بن السمين " رجل من اليهود، فالتمست الدرع عن " طعمة" فلم تُوجد، وحلف ما أخذها وماله بها علم، فتركوه، واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي فأخذوها، فقال : دفعها إلى " طعمة "، وشهد له ناس من اليهود، فقالت "بنو ظفر" انطلقوا بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألوه أن يجادل عن صاحبهم، وقالوا : إن لم تفعل هلك وافتضح وبرئ اليهودي، وقيل همّ أن يقطع يده فنزلت الآيات : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا) إلى قوله : (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ۚ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) . (١)

وهذه الآيات الكريمة وإن كانت نزلت في حادثة معينة إلا أن توجيهاتها وأحكامها تتناول جميع المكلفين في كل زمان ومكان ". (٢)

وقد اقترن ذكر "الخطيئة" و "الإثم" فما الفرق بينهما ؟

الخطيئة : من الخطأ ، وهو عدم الإصابة، وقد تكون عن عمد، وقد تكون عن غير عمد ؛ إلا أن غير العمد أكثر .. والجمع : الخطيئات والخطايا ... قال الراغب : " الخطيئة أكثر ما تقال فيما لا يكون مقصوداً إليه فى نفسه، بل يكون القصد سبباً لتولد ذلك الفعل منه كمن يرمى صيداً فأصاب إنساناً، أو شرب مسكراً فجني جناية في سكره ". (٣)

والمستقرئ للفظ "الخطيئة " واستقاقاتها في القرآن الكريم يتأكد له ما قاله الأصفهاني .

قال تعالى : (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) (البقرة / ٢٨٦)

قال تعالى : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً) (النساء / ٩٢)

قال تعالى :(وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ) (الأحزاب/٥)

قال تعالى : (إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا) (الشعراء / ٥١)

---

(١) النساء الآيات ١٠٥ إلى ١١٣

(٢) راجع : الكشاف للزمخشري ٥٩٥/١، وتفسير ابن كثير ٥٥٢/١

(٣) المفردات للراغب ص ١٥١

قال تعالى : (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) (الشعراء / ٨٢)

قال تعالى : (وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ) الأعراف / ١٦١

فهذه الآيات وغيرها تدل على أن لفظ "الخطيئة" أكثر ما تستعمل في غير العمد .

أما الإثم : فهو اسم للأفعال المبطئة عن الثواب، وجمعة آثام، قال تعالى : (فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) [١] يعنى في تناولهما إبطاء عن الخيرات . [٢]

والإثم لا يكون إلا عن عمد، والدليل على ذلك قوله تعالى : (وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ) [٣] فهذا دليل بيِّن أن الإثم هو ما يكون سبباً لاستحقاق العقوبة.

قال الطبري : " وإنما فرق – سبحانه – بين الخطيئة والإثم، لأن الخطيئة قد تكون من قبل العمد وغير العمد، والإثم لا يكون إلا من العمد، ففصل جل ثناؤه لذلك بينهما ". [٤]

وقيل : إن المراد بالخطيئة المعصية الصغيرة، والمراد بالإثم المعصية الكبيرة . [٥]

وقيل : الخطيئة : هي الذنب القاصر على فاعلها، والإثم : الذنب المتعدي إلى الغير كالظلم والقتل ونحوهما . [٦]

ومعنى الآية : ومن يكسب خطيئة من غير عمد، أو إثماً متعمداً، ثم يرم به بريئاً، بأن ينسبه إليه ويحتال لترويج ذلك، فقد احتمل (بهتاناً) وهو الكذب الفاحش على البريء بما ينبهت له ويتحير منه عند سماعه لفظاعته و (إثماً مبيناً) أي ظاهراً لا خفاء فيه والإثم المبين هو الذي يستوجب العقاب والجزاء .

---

(١) البقرة /٢١٩

(٢) المفردات للراغب ص ١٠، ومقاييس اللغة لأبن فارس ٨٠/١

(٣) النساء / ١١١

(٤) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري ٥ /٢٧٤

(٥) راجع الكشاف ٥٩٧/١ والتحرير والتنوير ١٩٦/٥

(٦) تفسير الكبير للرازى ٣١/١١

قال الرازي : " واعلم أن صاحب البهتان مذموم في الدنيا أشد الذم، ومعاقب في الآخرة أشد العقاب، فقوله : (فقد احتمل بهتاناً) إشارة إلى ما يلحقه من الذم العظيم في الدنيا، وقوله : (وإثماً مبيناً) إشارة إلى ما يلحقه من العقاب العظيم في الآخرة . [1]

فالسّر البلاغي في الجمع بين "الخطيئة" و "الإثم" وعطف الثانية على الأولى،هو الاحتراس ، حتى لا يتوهم متوهم أن من يكسب خطيئة من غير عمد لا يستوجب العقاب والجزاء .

قال ابن عاشور : " وإنما جعل الرمي بالخطيئة وبالإثم في مرتبة واحدة وهي كون ذلك (بهتاناً وإثماً عظيماً)،لأن رمى البريء بالجريمة في ذاته كبيرة لما فيه من الاعتداء على حق الغير ". [2]

وأفرد الضمير في قوله : (ثم يرم به بريئاً) : لدلالة على أنه عائد على أحد الأمرين – الخطيئة أو الإثم – دون تعيين لأحدهما _ كأنه قيل : ثم يرم بأحد الأمرين . وقيل الضمير عائد إلى الكسب، والتقدير : ثم يرم بكذبه بريئاً على حد قوله تعالى : (أعدلوا هو أقرب للتقوى) [3] أي : العدل . [4]

والتعبير بلفظ "احتمل " دون " حمل " تؤكد أن هناك معالجة ومكابدة بشدة في حمل الإنسان هذا الشيء الثقيل، فالجريمة جريمتان وليست واحدة لقد فعل الخطيئة ورمى بها بريئاً، وفاعل الخطيئة يندم على فعلها مرة ويندم علي إلصاقها بالبريء مرة ثانية .

قال بن عاشور : التعبير بقولة : " احتمل " تمثيل لحال فاعله بحال عناء الحامل ثقلاً". [5]

---

(١) السابق ٣١/١١

(٢) التحرير والتنوير ١٩٦/٥

(٣) المائدة / ٨

(٤) راجع : روح المعاني للألوسي ١٤٢/٥

(٥) التحرير والتنوير ١٩٦/٥

٧- الفرق بين النشوز والإعراض

قال تعالى : (وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ۚ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)[1]

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية أقوال : منها ما رواه البخاري، عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : نزلت في المرأة تكون عند الرجل لا يستكثر منها فيريد طلاقها ويتزوج غيرها، تقول له : أمسكني ولا تطلقني ثم تزوج غيري وأنت في حلّ من النفقة عليّ والقسمة لي، فذلك قوله تعالى : (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا). [2]

ومنها ما روى أن " سودة بنت زمعة " زوج الرسول صلى الله عليه وسلم – لما كبرت خشيت أن يطلقها رسول الله، فقالت : يا رسول الله : لا تطلقني واجعل يومي لعائشة، ففعل، ونزلت هذه الآية". [3]

ومعنى الآية : إذا توقعت المرأة من زوجها نشوزاً أو إعراضاً، وذلك لكبر سنها، أو عيب في خَلْق أو خُلُق، أو ملال، أو طموح عين إلى أخرى أو غير ذلك، فلا حرج ولا إثم في أن تجري الزوجة مع زوجها صلحاً يحفظ لها بقائها في عصمته عزيزة محترمة ؛ وذلك بأن تسقط عنه المهر أو بعضه أو تسقط حقها في الفراش لضرتها، أو تهب له شيئاً تستميله به . وهذا خير لهما من الفراق .

وقد قرن النظم القرآني بين النشوز والإعراض، وهما متقاربان في المعنى، فما الفرق بينهما ؟

النشوز : مشتق من النَّشَزْ، وهو ما ارتفع من الأرض، والجمع أنشاز ونشوز، ومنه نَشَزَ فلان عن مقره، أي : نبا، وكل نابٍ ناشز . [4]

---

(١) النساء / ١٢٨

(٢) راجع : الدر المنثور للسيوطي ٢/٧١٠، والتحرير والتنوير ٥/٢١٥ وصحيح البخاري ٥/١٩٩٨ كاب : النكاح، باب وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أ إعراضاً ح / ٤٩١٠

(٣) الكشاف للزمخشري ١/٦٠٤، وتفسير بن كثير ١/٥٦٣

(٤) راجع : لسان العرب (نشر)، والمفردات للراغب ص ٤٩٧، ومقاييس اللغة ٥/٤٣٠

والنشوز يكون بين الزوجين، ونشوز الرجل : أن يتجافى عنها بأن يمنعها نفسه ونفقته والمودة والرحمة التي بينهما، وأن يؤذيها بسب أو ضرب مثلاً وأن يسيء معاملتها .(١)

والإعراض : مشتق من أَعْرَضَ، أي : أظهر عرضه وناحيته، تقول : أعرض عني، أي : وَلّى مبدياً عَرْضَهُ .. والإعراض عن الشيء : الصدّ عنه، وأعرض عنه، صدَّ .(٢)

وإعراض الرجل عن زوجته : أن يقل محادثتها ومؤانستها، وينصرف عنها بوجهه أو ببعض منافعه التي كانت لها منه، وذلك لبعض الأسباب من طعن في سن، أو دمامة في خَلْق أو خُلُق، أو ملالٍ .. أو غير ذلك فالإعراض – إذن – أخف من النشوز .(٣)

والسرّ في عطف " الإعراض " على " النشوز " بأو، هو الإباحة، أي : إباحة الصلح بين الزوجين عند خوف المرأة من زوجها النشوز أو الإعراض، حفاظاً على العلاقة الزوجية .. فالحق سبحانه وتعالى يريد أن ينهى أي خلاف بين الزوجين قبل أن يقع، لذلك أوجب على المرأة أن تبحث عن سبب النشوز وسبب الإعراض، فقد تكون المرأة كبرت في السن، أو نزلت بها علة، وما زال في الرجل بقية من فتوة، وقد يصح أن امرأة أخرى استمالته أو يرغب في الزواج بأخرى لأي سبب من الأسباب، هنا أباح الحق للمرأة أن تعالج المسألة علاج العقلاء (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا) كأن تتنازل عن قسمها، أو تسمح له الزواج بأخرى، المهم أن يدور الصلح بين الرجل والمرأة . وهي مهمة الرجل كما أنها مهمة المرأة .

ونلحظ أن الحق تبارك وتعالى رتب الحكم على مجرد الخوف من النشوز أو الإعراض دون حدوثهما بالفعل، وفي هذا تنبيه لكل زوجين ألا يتركا المسائل حتى تقع، بل عليهما أن يتلافيا أسبابها قبل الوقوع، لأنها إن وقعت ربما استعصى عليهما تداركها .

---

(١) راجع : الكشاف ٦٠٤/١ ، وروح المعاني ١٦١/٥

(٢) راجع لسان العرب (عرض)، والمفردات ص ٣٣٠

(٣) راجع الكشاف ٦٠٤/١، وروح المعاني ١٦١/٥

قال ابن عاشور : " وقد دلت الآية على شدة الترغيب في الصلح بمؤكدات ثلاثة : وهي المصدر المؤكد في قوله : "صلحاً " ، والإظهار في مقام الإضمار في قوله : (والصلح خير)، والإخبار عنه بالمصدر أو بالصفة المشبهة فإنها تدل على فعل سجية . (١)

٨-الفرق بين الكمال والتمام

قال تعالى : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (٢)

ذكر ابن كثير أن هذه الآية نزلت يوم عرفة في حجة الوداع، فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام .(٣)

والمعنى : اليوم أكملت لكم حدودي وفرائضي وحلالي وحرامي، وأتممت عليكم نعمتي بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين، وآداء فريضة الحج دون أن يشاركم في الطواف بالبيت أحد من المشركين، وجعلت كلمتكم هي العليا، وكلمة أعدائكم هي السفلى، ورضيت لكم الإسلام ديناً بأن أخترته لكم من بين الأديان وجعلته الدين المقبول عندي .

وقد اقترن (الكمال والتمام) في قوله : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)، والعطف يقتضي المغايرة، فما الفرق بينهما ؟

قيل : (التمام) لإزالة نقصان الأصل، و(الكمال) لإزالة نقصان العوارض بعد تمام الأصل، ولهذا كان قوله تعالى : (تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ) (٤) أحسن من (تامة)، لأن التمام من العدد قد علم، وإنما نفى احتمال نقص في صفاتها . (٥)

---

(١) التحرير والتنوير ٥ /٢١٧

(٢) المائدة /٣

(٣) تفسير ابن كثير ١٣/٢

(٤) البقرة / ١٩٦

(٥) راجع : البرهان للزركشي ٨٤/٤، ٨٥

لذا قال الزمخشري في قوله تعالى : (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ) [1] إن (كاملين) توكيد، كقوله تعالى : (تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ) [2]؛ لأنه مما يتسامح فيه فيقول : أقمت عند فلان حولين ولم تستكملهما . [3]

وقيل : (تمٌ) تشعر بحصول نقص قبلها، و (كمل) لا تشعر بذلك، يقال : رجل كامل إذا جمع خصال الخير، ورجل تام إذا كان غير ناقص الطول . [4]

واعتماداً على هذا الفارق قال ابن حجة الحموي فى الفرق بين "التتميم" و "التكميل "، البلاغيين : "لقد وهم جماعة من المؤلفين وخلطوا التكميل بالتتميم " ... والفرق بينهما أن :" التتميم " يرد على الناقص فيتمه، و "التكميل" يرد على المعنى التام فيكمله : إذ الكمال أمر زائد على التمام. [5]

وقال أبو هلال العسكري : (الكمال) اسم لاجتماع أبعاض الموصوف به، و (التمام) اسم للجزء الذي يتم به الموصوف، ولهذا يقولون : القافية تمام البيت ويقولون : البيت بكماله ". [6]

وقال الراغب : كمال الشيء، حصول ما فيه الغرض منه، فإذا قيل : كمل ذلك فمعناه حصل ما هو الغرض منه، وقوله تعالى : (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ)، تنبيهاً أن ذلك غاية ما يتعلق به صلاح الولد، وقوله : (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [7]، تنبيهاً أنه يحصل لهم كمال العقوبة . وقوله : (تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ) ،ليبين أنه بحصول صيام العشرة يحصل كمال الصوم القائم مقام الهدى ". [8]

---

(١) البقرة / ٢٣٣

(٢) البقرة /١٩٦ .

(٣) الكشاف ٣٠٧/١

(٤) راجع : البرهان للزركشي ٨٥/٤

(٥) خزانة الأدب لأبن حجة الحموي ٥٨/٩

(٦) الفروق اللغوية للعسكري ص ٢٦٣.

(٧) النحل / ٢٥

(٨) المفردات للراغب ص ٤٤١

وقال أيضاً : " تمام الشيء انتهاؤه إلى حد لا يحتاج إلى شيء خارج عنه ". (١)

والمتأمل يلحظ أنه عبر في جانب الدين بالكمال فقال : (أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)، ولم يقل أتممت، إيذاناً بأن الدين كان تاماً في نفسه، فلا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ولا شيء خارجاً عن الكلمة بوجه بل هو الكامل في حسنه وجلالته . (٢)

وعبر في جانب النعمة بالتمام فقال : (وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)، لإفادة أن النعمة كانت ناقصة وإنما تمت في هذا اليوم، وإيذاناً بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها . (٣)

قال ابن القيم –رحمه الله – : " تأمل حسن اقتران التمام بالنعمة، وحسن اقتران الكمال بالدين، وإضافة الدين إليهم، إذا هم القائمون به المقيمون له، وأضاف النعمة إليه، إذ هو – سبحانه – وليها ومسديها والمنعم بها عليهم، فهي نعمته حقاً وهم قابلوها .. وأتى في الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص وأنه شيء خُصُوا به دون الأمم،وأتى في إتمام النعمة بـ (على) المؤذنة، بالاستعلاء والاشتمال والإحاطة، ثم جاء بأتممت في مقابلة أكملت، وعليكم في مقابلة لكم، ونعمتي في مقابلة دينكم، وأكد ذلك وزاده تقريراً وكمالاً وإتماماً للنعمة بقوله : (رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)". (٤)

٩ – الفرق بين الشريعة والمنهاج

قال تعالى : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً

---

(١) المرجع السابق ص ٧٥

(٢) راجع : مفتاح دار السعادة لابن القيم ١ /٣٠٢

(٣) المرجع السابق ١/ ٣٠٢

(٤) المرجع السابق ١/٣٠٢

وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـٰكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (١)

جاء في مسائل ابن الأزرق، أنه سأل ابن عباس عن قولة تعالى : (شرعة ومنهاجاً) فأجابه : الشرعة : الدين، والمنهاج : الطريق . واستشهد على ذلك بقول أبي سفيان الحارث بن عبد المطلب:

لقد نطق المأمون بالصدق والهدى وبيَّن للإسلام ديناً ومنهاجاً (٢)

وتعقب بنت الشاطئ على هذا بأن " تفسير الشرعة بالدين قريب مع فرق دقيق بينهما تعطيه دلالة الدين أصلاً على الطاعة والانقياد، ودلالة الشرعة على الطريق الواضح، وهى في أصل اللغة من شريعة الماء بما تعطى من ري ونجاة . والمنهاج ليس مجرد طريق، ولكنه الطريق المعبد المأمون". (٣)

واشتقاق الشرعة إما من شرغ بمعنى بين وأوضح، من قولهم : شرعت الإهاب إذا شققته وسلخته، أو من شرع في الشيء إذا دخل فيه . (٤)

والشرعة في اللغة تطلق على مورد الناس للاستسقاء، سميت بذلك لوضوحها وظهورها وهى المشرعة، قال الأزهري : لا تسميها العرب مشرعة حتى يكون الماء عدّاً لا انقطاع له كماء الأنهار، ويكون ظاهراً معيناً ولا يستقى منه برشاء فإن كان من ماء الأمطار فهو الكرع . (٥)

والتشريع : إيراد الإبل شريعة لا يحتاج معها إلى نزع بالعلق ولا سقي بالحوض ولهذا كان الأمر على ما قال على بن أبي طالب رضي الله عنه : أهون السقي التشريع وتقول اللغة أيضا : الناس في

---

(١) المائدة / ٤٨

(٢) الإعجاز البيانى ومسائل ابن الأزرق ص ٢٨٠

(٣) المرجع السابق ص ٢٨٠

(٤) راجع / القاموس المحيط للفيروز آبادي ١ / ٩٤٦ .

(٥) راجع : المصباح المنير فى غريب الكبير للرافعى ٣١٠/١

هذا شرع واحد، أي سواء، ومنه سمي الشارع حيث المرور فيه حق مشترك للجميع على حد سواء. (١)

وبإعادة النظر فيما تقدم نجد أن المعنى اللغوي للكلمة يدور حول الوضوح والظهور، كما يدل على السهولة واليسر مع المساواة في إتاحة الأمر للجميع على حد سواء من غير تفضيل لأحد على آخر .

قال تعالى عن اليهود : (إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) (٢)

فكان في ظهور السمك يوم السبت وكثرته مع سهولة صيده ويسره ابتلاء لليهود لم يصبروا عليه واختباراً لهم لم يجتازوه .

يقول الراغب : " فالشرع : نهج الطريق الواضح، وهو في أصله مصدر من قولهم : شرعت له طريقاً، ثم جعل اسماً للطريق النهج، واستعير ذلك للطريقة الإلهية " . (٣)

فأصبح يدل هذا اللفظ على ما شرع الله لعباده من أحكام الدين وسنه لهم، وافترضه عليهم، وجعلهم في حكمة سواسية لا فضل لأحدهم على الآخر .

قال بن عاشور : "وسيمت الديانة شريعة على التشبيه، لأن فيها شفاء النفوس وطهارتها، والعرب تشبه بالماء وأحواله كثيراً " . (٤)

وقوله تعالى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) (٥) إشارة إلى وحدة شرائع الله وديانته إلى الأمم في أصولها من معرفة الله وتوحيده وإقامة دينه وما إلى ذلك .

---

(١) راجع : القاموس المحيط ٩٤٦/١

(٢) الأعراف / ١٦٣

(٣) المفردات للراغب ص ٢٥٨

(٤) التحرير والتنوير ٦ / ٢٢٣

(٥) الشورى /١٣

وأما النهج : فهو الطريق الواضح، والمنهج والمنهاج مثله، ونهج الطريق ينهج نهوجاً : وضح واستبان .. قال الراجز :

من يكُ ذا شك فهذا فلج ماء رواء وطريق نهج [1]

قال ابن جرير الطبري :" المنهاج" أصله الطريق البين الواضح، ثم يستعمل في كل شيء كان بيناً واضحاً سهلاً،فمعنى الكلام لكل قوم منكم جعلنا طريقاً إلى الحق يؤمه وسبيلاً واضحا يعمل به.[2]

فمدار الشريعة إذن على الظهور والسهولة واليسر من غير صعوبة أو مشقة مع التساوي في إتاحة الفرصة . ومدار المنهاج على الوضوح والاستبانة من غير غموض أو التواء أو إبهام .

والله قد جعل شرائعه ودينه سهلاً ميسراً، وجعله واضحاً بيناً، ومتاحاً للجميع الدخول فيه والارتواء منه والاهتداء بنوره، فما على الناس إلا أن يشرعوا في سلوك هذا الطريق السوي السهل المروى لأرواحهم، والهاد إلى نجاتهم والباعث على الطمأنينة والرضا في نفوسهم .

فعطف "المنهاج" على "الشرعة" هنا باعتبار جمع الأوصاف كما ذكر الألوسي . [3]

١٠-الفرق بين الاستماع والإنصات

قال تعالى : (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) [4]

ذكر العلماء في سبب نزول هذه الآية عدة أقوال منها :

-أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في الصلاة المكتوبة، فقرأ أصحابه وراءه رافعين أصواتهم، فنزلت هذه الآية .

---

(١) راجع : القاموس المحيط ٢٦٦/١، والمصباح المنير ٦٢٧/٢

(٢) تفسير ابن جرير الطبري ٢٦٩/٢

(٣) روح المعاني ١٥٣/٦

(٤) الأعراف / ٢٠٤ .

-ومنها أنهم كانوا يتكلمون في صلاتهم أول ما فرضت، فيجيء الرجل فيقول لصاحبه : كم صليتم ؟ فيقول : كذا وكذا، فنزلت . (١)

-وقيل هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات.(٢)

ومعنى الآية : وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في الصلاة وغيرها، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله ؛ فإنه ينال خيراً كثيراً وعلماً غزيراً، وإيماناً متجدداً، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما : (لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)، وهذا إرشاد إلى طريق الفوز بما أشير إليه من المنافع الجليلة التي ينطوي عليها القرآن . (٣)

وقد عُطف " الإنصات " على "الاستماع " والعطف يستلزم المغايرة.. فما الفرق بينهما ؟

أحسب أن من تمام الفائدة أن نفرق بين (السمع) و(الاستماع) و(الإصغاء) و(الإنصات) لاسيما وأن النظم القرآني فرق بين هذه الألفاظ بطريقة بليغة ودقيقة راعى فيها المناسبة للموقف والسياق .

فالسمع : هو التقاط الأذن لحديث ما أو صوت ما سواء أكان بقصد أم من غير قصد، ومنه قوله تعالى : (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ) (٤)

وأما الاستماع : فهو فعل إرادي يقصد منه استراق السمع وتمييزه جيداً، وذلك بأن يلقي المخاطب سمعه .. وفسر بعض العلماء الاستماع بالإصغاء (٥)

كما أن صيغة الافتعال تدل على المبالغة في الفعل وهو طلب السماع . (٦)

ومنه قوله تعالى : (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ) (١)

---

(١) راجع : تفسير الطبري ٩ /١٦٣.

(٢) راجع : تفسير السعدي : ٣١٤/١.

(٣) راجع : تفسير السعدي ١ /٣١٤، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٣١٠/٣ .

(٤) القصص : ٥٥ .

(٥) المفردات للراغب ص ٢٤٣ .

(٦) راجع : التحرير والتنوير ٩ /٢٣٩ .

وقوله تعالى : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا) (٢)

وقوله تعالى : (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ) (٣)

وقوله تعالى : (وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ) (٤)

وقوله تعالى : (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (٥)

وأما الإصغاء : فهو التركيز في الكلام المسموع وتفاعل القلب والمشاعر معه، وقد ورد لفظ الإصغاء في موضعين : قال تعالى : (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) (٦)

- وقال تعالى : (وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) (٧)

وأما الإنصات : فهو السكوت للاستماع وترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماع الكلام، وذلك بتخليه الفضاء مما يمكن أن يشوش على عملية السماع كأن تغلق النوافذ أو تطلب من الحضور السكوت مثلاً .. ففي اللسان : " الإنصات : السكوت بغية الاستماع لشيء ما " (٨)

وقد ورد لفظ "الإنصات " في موضعين :

قال تعالى : (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (٩)

وقال تعالى : (فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا) (١٠)

---

(١) الأحقاف : ٢٩ .

(٢) محمد : ١٦

(٣) الإسراء : ٤٧.

(٤) ق : ٤١

(٥) الأعراف : ٢٠٤ .

(٦) التحريم : ٤ .

(٧) الأنعام : ١١٣

(٨) اللسان : (نصت) .

(٩) الأعراف : ٢٠٤ .

(١٠) الأحقاف : ٢٩ .

وعند تأمل هذه الحالات الأربع، نجد أن (السمع) هو الحالة العفوية الوحيدة من بينها، أما الحالات الثلاث فأفعال إرادية مقصودة يمكن التحكم بها، كما أن الاستماع والسمع متعلقان بالأذن، أما الإصغاء، فإنه متعلق بالقلب، وأما الإنصات فإنه متعلق بالمكان والبيئة المحيطة .

والسر البلاغي في الجمع بين (الاستماع) و(الإنصات) عند قراءة القرآن، هو الاهتمام بأمر القرآن، والإشارة إلى أنه لا كلام مع كلام رب العالمين، تعظيماً لشأنه، وفهما لمعانيه، وفقها لتوجيهاته .

١١-الفرق بين السر والنجوى :

قال تعالى في شأن المنافقين : (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ).[١]

وقال تعالى في شأن الظالمين : (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) [٢]

الفرق بين السر والنجوى، أن السرّ هو : إخفاء الشيء في النفس فلو اختفى بستر أو وراء جدار لم يكن سراً. [٣]

قال ابن عاشور : " السرّ : ما يخفيه المرء من كلام وما يضمر في نفسه فلا يطلع عليه الناس " .[٤]

والنجوى : اسم للكلام الخفي الذي تناجي به صاحبك كأنك ترفعه عن غيرك . [٥]

قال الراغب : "ناجيته أي ساررته، وأصله أن تخلو به في نجوة من الأرض وقيل أصله من النجاة، وهو أن تعاونه على ما فيه خلاصه، أو أن تنجو بسرك من أن يطلع عليك : قال تعالى (يَا

---

(١) التوبة : ٧٨ .

(٢) الزخرف : ٨٠ .

(٣) راجع : الفروق اللغوية للعسكري ص ٦٣، والمفردات للراغب ص ٢٢٨ .

(٤) التحرير والتنوير ٢٧٤/١٠ .

(٥) الفروق اللغوية للعسكري ص ٦٣ .

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ)[1]

والنجوى أصله المصدر ، قال تعالى : (إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ)[2]، وقال تعالى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ)[3]، وقال أيضاً : (وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)[4] .

وقال : (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ) .[5] [6]

فالنجوى هي المحادثة بخفاء، وما يتحادثون به سراً لئلا يطلع عليه غيرهم .[7]

قال صاحب المنار : " أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ " أي : ألم يعلم هؤلاء المنافون الذين يعلنون غير ما يسرون ويقولون ما لا يفعلون، ويتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان ولمز الرسول، أن الله يعلم سرهم الكامن في أعماق قلوبهم، ونجواهم التي يخصون بها من يثقون بمشاركته إياهم في نفاقهم " .[8]

وقدم السر على النجوى : لأن العلم بالسر أعظم في الشاهد من العلم بالنجوى، حيث إن السر ــ كما ذكرنا ــ هو الحديث المكتم في النفس، فالعلم به أعظم من النجوى .[9]

والنكتة في عطف النجوى على السر والجمع بينهما، هو التنبيه والتأكيد على أن الله عليم بأحوالهم وسيجازيهم عليها، وأنه سبحانه يعلم الغيوب كلها فلا يخفى عليه شيء في الكون، فهو

---

(١) المجادلة : ٩ .

(٢) المجادلة ١٠

(٣) المجادلة : ٨ .

(٤) الأنبياء : ٣ .

(٥) المجادلة : ٧ .

(٦) راجع : المفردات للراغب ص ٤٨٤ .

(٧) راجع : التحرير والتنوير ١٠ / ٢٧٤ .

(٨) تفسير المنار ١٠ / ٥٦٢ .

(٩) راجع : روح المعاني للألوسي ١٠ : ١٤٦

مطلع على السرائر فلا يخفى عليه ما يضمرونه في صدورهم، كما لا يخفى عليه ما يتناجون بـــه في الخفاء .

١٢- الفرق بين : الخوف والخشية .

قال تعالى : (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَـــذَكَّرُ أُولُـــو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِـــهِ أَنْ يُوصَـــلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ) (١)

من صفات أولي الألباب أنهم (يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ)، وقد عطف " الخوف " على " الخشية " والعطف يقتضي المغايرة كما هو مقرر، فما الفرق بينهما ؟

ذكر أبو هلال العسكري أن " الخوف يتعلق بالمكروه وبترك المكروه، تقول : خفت زيـــداً، كما قال تعالى : (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ) (٢)، وتقول : خفت المرض، كما قال ـــ ســـبحانه ـــ (وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ) (٣)، والخشية تتعلق بمترل المكروه ولا يسمى الخوف من نفس المكـــروه خشية، ولهذا قال تعالى : (وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِـــسَابِ) (٤)، فـــذكر الخـــشية أولاً والخوف ثانياً . (٥)

ونقل العسكري عن الطوسي فرقاً آخر فقال : " الخوف : تألم النفس من العقاب المتوقـــع بسبب ارتكاب المنهيات والتقصير في الطاعات وهو يحصل لأكثر الخلق وإن كانت مراتبه متفاوتـــة جداً .. والخشية : حالة تحصل عند الشعور بعظمة الخالق وهيبته وخوف الحجب عنه، وهذه حالة

---

(١) الرعد : ١٩، ٢٠، ٢١

(٢) النحل : ٥٠ .

(٣) الرعد : ٢١ .

(٤) الرعد : ٢١ .

(٥) الفروق اللغوية ص ٢٤١ .

لا تحصل إلا لمن اطلع على حال الكبرياء وذاق لذة القرب، ولذا قال تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (١)

فالخشية خوف خاص ...ويؤيد هذا الفرق أيضاً قوله تعالى يصف المؤمنين : (وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ)، حيث ذكر الخشية في جانبه ــ سبحانه ــ والخوف في جانب الحساب .

وفرق الراغب بينهما اعتماداً على الأصل الباعث على الخوف والخشية فقال: " الخشية : خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خص العلماء بها في قوله : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (٢)

" والخوف : توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، كما أن الرجاء والطمع توقع محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة ..ويضاد الخوف الأمن، ويستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية .. والخوف من الله لا يراد به ما يخطر بالبال من الرعب كاستشعار الخوف من الأسد، بل إنما يراد به الكف عن المعاصي واختيار الطاعات، ولذا قيل لا يعد خائفاً من لم يكن للذنوب تاركاً " . (٣)

ووضح ابن القيم الفرق بين الخوف والخشية فقال : " والخشية : أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله، قال تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) فهي خوف مقرون بمعرفة، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : إني أتقاكم لله وأشدكم له خشية " فالخوف : حركة، والخشية : انجماع وانقباض وسكون، فإن الذي يرى العدو والسيل ونحو ذلك له حالتان : إحداهما : حركة للهرب منه، وهي حالة الخوف، والثانية : سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه، وهي الخشية، فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين " . (٤)

وفرق الزركشي بين الكلمتين على أساس اللغة فقال : " الخشية أعلى من الخوف، وهي أشد الخوف ؛ لأنها مأخوذة من قولهم : شجرة خشية إذا كانت يابسة، وذلك فوات بالكلية ...

---

(١) فاطر / ٢٨ .

(٢) الفروق اللغوية للعسكري ص ٢٤١ .

(٣) المرجع السابق ص ١٦١ .

(٤) مدارج السالكين لابن القيم ١ / ٥١٢ .

والخوف مأخوذ من قولهم : ناقة خوفاء إذا كان بها داء، وذلك نقص وليس بفوات . ومن ثم خصت الخشية بالله تعالى في قوله : (وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ) . (١)

وفرق بينهما أيضاً بقوله : " إن الخشية تكون من عظم المخشي وإن كان الخاشي قوياً، والخوف يكون من ضعف الخائف وإن كان المخوف أمراً يسيراً، ويدل على ذلك أن الخاء والشين والياء في تقاليبها تدل على العظمة، نحو : شيخ، للسيد الكبير، وخيش : لما عظم من اللباس ... أما الخاء والواو والفاء فإنها تدل في تقليباتها على الضعف، وانظر إلى الخوف لما فيه من ضعف القوة، قال تعالى : (وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ)، فإن الخوف من الله لعظمته يخشاه كل أحد كيف كانت حاله، وسوء الحساب لا يخافه من كان عالماً بالحساب وحاسب نفسه قبل أن يحاسب". (٢)

وفرقت بنت الشاطئ بين الخوف والخشية اعتماداً على استقراء مواضع الكلمتين في القرآن الكريم، فقالت : " تفترق الخشية عن الخوف بأنها تكون عن يقين صادق بعظمة من نخشاه ... أما الخوف فيجوز أن يحدث عن تسلط بالقهر والإرهاب " . (٣)

والمتأمل لاستعمالات لفظ (الخشية) في القرآن الكريم يلحظ عدة أمور :

أولاً : كل خشية في القرآن ــ على اختلاف صيغها ــ لا تكون إلا في الحياة الدنيا لا في الآخرة، إذ الدنيا هي مجال الابتلاء . (٤)

ثانياً : متعلق الخشية في القرآن كلها أمور عظيمة الشأن مثل : الغيب، والساعة، واليوم الآخر ،والعنت، وكساد التجارة، والإملاق، وضياع اليتامى، والإرهاق طغياناً وكفراً. (٥)

ثالثاً : اطراد تعلق الخشية في القرآن الكريم بذات الله ــ عز وجل ــ وحده دون أي مخلوق. (١)

---

(١) البرهان للزركشي ٤ / ٧٨، الإتقان ١ / ٥٦٩، وروح المعاني ١٣ / ١٤١ .

(٢) البرهان ٤ / ٧٨، ٧٩، وروح المعاني ١٣ / ١٤١ .

(٣) الإعجاز البياني ص ٢٠٩ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٠٩ .

(٥) المرجع السابق ص ٢٠٩ .

قال تعالى : (فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (٢)

وقال تعالى : (وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ) (٣)

وقال تعالى : (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) (٤)

وهكذا في كل مواضع القرآن لا تجد عن ذلك تخلفاً .

رابعاً : تسند خشية الله في القرآن إلى أصناف بعينها، وهم :

١-الأنبياء والرسل : قال تعالى : (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا) . (٥)

٢-العلماء : قال تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (٦)

٣-المؤمنون : قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) (٧)

٤-المتقون : قال تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ) (٨)

٥-الملائكة : قال تعالى : (وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) (٩)

---

(١) الإعجاز البياني ص ٢٠٩ .

(٢) التوبة : ١٣ .

(٣) الأحزاب : ٣٩ .

(٤) الرعد : ٢١

(٥) الأحزاب : ٣٩ .

(٦) فاطر : ٢٨ .

(٧) المؤمنون : ٥٧ .

(٨) الأنبياء ٤٨، ٤٩ .

(٩) الأنبياء : ٥٧ .

٦-أولو الألباب : قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ (١)

ومن أخشى لله من هؤلاء ؟! فهم أعرف الناس وأعلمهم بعظمة الله وهيبته لا سيما وأنهم ذاقوا لذة القرب من الخالق وأدركوا كبرياءه وجلاله .

وقد ذكر الشهاب الخفاجي أن هذه الفروق بين الخوف والخشية أغلبي لا كلي . (٢)

ومن خلال تتبع آيات القرآن التي ذكرت الخوف والخشية نجد أن هناك أكثر من فرق ويمكن إجمالها في الآتي :

١-الخشية أخص من الخوف، ولهذا تسند إلى الأنبياء والعلماء والمؤمنين لأنهم أقدر الناس على استشعار عظمة الله وهيبته .. أما الخوف فيسند إلى العامة والخاصة .

٢- الخشية أشد من الخوف وأعلى منه ؛ لأن الخشية خوف مع تعظيم المخشي، كما أنها خوف مقرون بعلم ومعرفة بالمخشي منه ولذلك قصرت على العلماء والأنبياء والمتقين، أما الخوف فمبناه على توقع المكروه، ويكون من ضعف الخائف وإن كان المخوف منه أمراً يسيراً .

٣-الخشية لا تكون إلا في الحياة الدنيا، أما الخوف فيتناول الأمور الدنيوية والأخروية .

وهكذا ــ كما ترى ــ فإن بين الخوف والخشية عموم وخصوص، فالخوف أعم من الخشية، ولعل هذا العموم والخصوص هو الذي دفع الشهاب الخفاجي إلى القول بأن الفرق بينهما أغلبي لا كلي وضعي .

١٣- الفرق بين : البث والحزن .

---

(١) الرعد : ١٩، ٢٠، ٢١ .

(٢) راجع : حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٥ / ٢٣٥، روح المعاني ١٣ / ١٤١ .

قال تعالى : (قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (١)

موضع الشاهد في قوله : (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)، وقد اقترن البث والحزن، فما الفرق بينهما ؟

أصل البث : التفريق وإثارة الشيء، كبث الريح التراب، وبث النفس ما انطوت عليه من الغم والسر، يقال : بثثته فانبث، ومنه قوله عز وجل (فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا) (٢)، وقوله (وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ) (٣)إشارة إلى إيجاده تعالى لم يكن موجوداً وإظهاره إياه، وقوله تعالى (كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ) (٤) أي : المهيج بعد سكونه وخفائه . (٥)

فالبث : أشد الحزن، سمي بذلك ؛ لأنه من صعوبته لا يصبر عليه صاحبه حتى يبثه أو يشكوه، قال الزمخشري، " البث : أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثه على الناس أي ينشره، ومنه : باثه أمره وأبثه إياه" . (٦)

والحزن : هو الهم الذي يخفيه الإنسان داخله ؛ لأن الحزن مستكن في القلب . (٧)

وقيل : الحزن هو الأسف على فائت، فبين البث والحزن عموم وخصوص، وقد اجتمعا ليعقوب ـ عليه السلام ـ لأنه كان مهتماً بالتفكير في مصير يوسف عليه السلام وما يعترضه من الكرب في غربته، وكان آسفاً على فراقه . (٨)

---

(١) يوسف : ٨٥، ٨٦ .

(٢) الواقعة : ٦ .

(٣) البقرة : ١٦٤ .

(٤) القارعة : ٤ .

(٥) راجع : المفردات للراغب ص ٣٧.

(٦) الكشاف ٢/ ٤٧٠ .

(٧) الفروق للعسكري ص ٢٦٧ .

(٨) راجع : التحرير والتنوير ١٣ / ٤٥ .

ومن خلال ما سبق يمكن القول بأن الإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب والهموم كان حزناً، وإذا لم يقدر على كتمه كان بثاً .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الشكوى إلى الخالق ـ عز وجل ـ لا تنافي الصبر الجميل فإن يعقوب ـ عليه السلام ـ قال : (فصبر جميل والله المستعان)، وقال أيضاً (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ) فقصر شكواه على الله وحده، فصارت الشكوى بهذا القصد ضراعة، وهي عبادة ؛ لأن الدعاء عبادة، وصار بياض عينيه الناشئ عن التذكر نتيجة الشكوى أثراً جسدياً ناشئاً عن عبادة، مثل تفطر أقدام النبي صلى الله عليه وسلم من قيام الليل . (١)

وقد أعقب كلامه بقوله : (وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)، لينبههم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصد العالية، ليعلموا أنهم دون مرتبة أن يعلموه أو يلوموه .. والمعنى : أنا أعلم علماً من عند الله علمنيه لا تعلمونه وهو علم النبوءة . (٢)

وقيل إن المعنى : أعلم من لطفه ورحمته وحسن ظني به أنه يأتيني بالفرج من حيث لا احتسب، وروى أنه رأى ملك الموت في منامه، فسأله : هل قبضت روح يوسف ؟ فقال : لا، والله هو حي فاطلبه " . (٣)

وإذا تجاوزنا التفسيرات اللغوية قليلاً إلى همس السياق، وما يلوح به المقام، لنقف على الفرق بين " البث" والحزن"، والسر في الجمع بينهما في سياق واحد نجد أن قبل هذه الآية حوار بين الأبناء وأبيهم، يعتذر فيه الأبناء عن ترك أخيهم سجيناً في مصر بما اقترفت يداه من السرقة التي شاع خبرها بين الظاعنين والمقيمين، ويرد الأب عليهم متهماً إياهم بالتفريط والتأخر، كما تآمروا على يوسف من قبل، ثم تنفلت من بين فكيه الكلمات مفصحة عن رجاء مكتوم وسر يعلمه الله : (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا)، قال هذا ثم عاد إلى قديم حزنه الذي تجدد بمأساة زادته لوعة وحسرة : (وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ)، وهنا ثار الأبناء

---

(١) المرجع السابق ١٣ / ٤٤، ٤٥ .

(٢) المرجع السابق ١٣ / ٤٥ .

(٣) الكشاف ٢ / ٤٧١ .

ليقينهم أن يوسف قد هلك منذ زمن بعيد، وأن أباهم يقتل نفسه حزناً بلا جدوى، فلو ذكر الضائع الجديد لرجوه : (تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ)، فها هنا استنكار لأمرين : التعلق بأمل مفقود، والحزن بلا جدوى، وهنا أردك يعقوب أن الأبناء لم يفهموا، فانصرف عنهم شاكياً إلى الله حاجته في رد يوسف وأخيه ورحمته بما يعانيه من أحزان ثم كأنه يعتذر لأبنائه عما يعلمه ولا يعلمونه، فيقول : (وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) وذلك بيان لسر إصراره على ذكر يوسف وتعلقه بأمل العودة، فالشكوى هنا ضراعة إلى الله أن يعيد عليه الغائبين وأن يرحم همه وحزنه، والأول هو ما عبر عنه بـ " البث"، والثاني زائل بتحقيق الأول، فلو كانا بمعنى واحد لكانت شكواه طعناً في صبره على قضاء الله، فإن استمرار الحزن على قضاء وقع لا مرد له من الله مما يترفع عنه الأنبياء، وإنما حسن هذا الحزن علم يعقوب من الله حياة يوسف عليه السلام، فشكواه هنا ضراعة إلى الله أن يعيده أو يزيل ألم الفراق عنه، وهذا ما أدركه الحسن ـ رضي الله عنه ـ حيث فسر " البث" بالحاجة، فعبر عن رغبة يعقوب الحبيسة في صدره، ومن ثم قدم البث ؛ لأنه الأهم، ولأنه السبب الذي يزيل الحزن ويبدد الهم . (١)

١٤- الفرق بين الأثاث والمتاع .

قال تعالى : (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ) (٢)

قال الخازن في لباب التأويل : " فإن قلت : أي فرق بين الأثاث والمتاع حتى ذكره بواو العطف، والعطف يوجب المغايرة ؟ فهل من فرق ؟ قلت : الأثاث : ما كثر من آلات البيت وحوائجه وغير ذلك، فيدخل فيه جميع أصناف المال . والمتاع : ما ينتفع به في البيت خاصة، فظهر الفرق بين اللفظين، والله أعلم " . (٣)

---

(١) راجع : الإعجاز في نسق القرآن للدكتور / محمد الأمين الخضري ص ٢١٣ وما بعدها .

(٢) النحل : ٨٠

(٣) لباب التأويل ٣ / ١٢٩ .

وقال الراغب : " الأثاث : متاع البيت الكثير وأصله من أثَّ أي : كثر وتكاثف وقيل للمال كله إذا كثر : أثاث " . (١)

وقال الراغب أيضاً : ويقال لما ينتفع به في البيت : متاع " . (٢)

وعليه فإن عطف " المتاع" على " الأثاث" من عطف الخاص على العام، يؤيد ذلك ان الآية الكريمة وردت في سياق تعداد نعم الله على الإنسان بوجه عام، والكشف عن أنواع النشاط الإنساني ومجالات العمل، وسبل الحياة في البيئة العربية خاصة، حيث ينقسم سكانها إلى حضر يشيدون بيوتهم للإقامة الدائمة، وبدو تمرنوا على حياة السفر فهداهم الله إلى إقامة منازل مستقلة تناسب حياتهم من جلود الأنعام، كما هداهم إلى منابع الاقتصاد ، ومصادر الثروة في الأنعام : (وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ) . (٣)

١٥-الفرق بين الظلم والهضم .

قال تعالى : (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) (٤)

الظلم والهضم من الألفاظ المتقاربة في المعنى، بيد أن هناك فارق دقيق بينهما، بدليل عطف الهضم على الظلم في هذه الآية .

فالهضم : نقصان بعض الحق .

والظلم : منع الحق كله أو بعضه سواءً بالزيادة أو النقصان .

فالظلم أعم من الهضم ؛ ولهذا قال أبو هلال : " الفرق بين الهضم والظلم : أن الهضم : نقصان بعض الحق، ولا يقال لمن أخذ جميع حقه قد هضم، والظلم : يكون في البعض والكل " . (٥)

---

(١) المفردات للراغب ص ٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٦١ .

(٣) الإعجاز في نسق القرآن للدكتور الخضري ص ٢١٦ .

(٤) طه : ١١٢ .

(٥) الفروق اللغوية ص ٢٣١، ٢٣٢ .

وإذا رجعنا إلى اللغة نجد أن أصل " الهضم " في اللغة : النقصان، ومنه قيل للمنخفض من الأرض : هضم، والجمع أهضام .. يقال : هضمه حقه هضماً : نقصه، وهضم له من حقه يهضم هضماً : ترك منه شيئاً عن طيبة نفس، وهضمت له من حظي طائفة ، أي تركته، ويقال : هضم له من حظه إذا كسر له منه . (١)

وقد ورد لفظ " هضم" مرتين في القرآن الكريم .

قال تعالى : (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) .

وقال تعالى : (وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ) (٢)، والهضيم : بمعنى المهضوم، وأصل الهضم كسر الشيء حتى يلين، والمراد هنا أنه يخرج تمراً جيداً .

والظلم في أصله اللغوي يدل على وضع الشيء في غير موضعه، إما بزيادة أو نقصان، وإما بعدول عن وقته أو مكانه، يقال : ظلم يظلم ظلماً ــ بفتح الظاء وضمها، فهو ظالم وظلوم، وظلمه حقه، أي منعه حقه كله أو بعضه، وتظلم من فلان أي : شكا من ظلمه .. ومن أمثال العرب : من أشبه أباه فما ظلم، أي : ما وضع الشبه في غير موضعه . (٣)

وقد أدرك المفسرون الفرق بين الظلم والهضم، قال ابن كثير : قوله (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا)، لما ذكر الظالمين ووعيدهم ثنى بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون، أي : لا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم، قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وقتادة، وغير واحد، فالظلم : الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره، والهضم : النقص" . (٤)

---

(١) راجع : لسان العرب (هضم)، والمفردات للراغب ص ٥٤٣، والفروق ص ٢٣٢ .

(٢) الشعراء : ١٤٨ .

(٣) راجع : لسان العرب (ظلم)، والمفردات للراغب ص ٣١٥، ٣١٦ .

(٤) تفسير ابن كثير ٣ / ١٦ ٧، والكشاف ٣ / ٩٠، وفتح القدير للشوكاني ٣ / ٣٨٧ .

وقال ابن عاشور : " ويجوز أن يكون الظلم في الآية بمعنى : النقص الشديد، كما في قوله : (وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا) [1] أي : لا يخاف إحباط عمله، وعليه يكون الهضم بمعنى : النقص الخفيف، وعطف على الظلم من باب الاحتراس ". [2]

والسر في الجمع بين الظلم والهضم في هذا السياق هو تأكيد العدل الإلهي، ونفي أي ظلم يقع على المؤمنين يوم القيامة في موقف الحساب، فلا يعاقب المؤمن بسيئة لم يعلمها، ولا يضيع عليه ثواب حسنة عملها، لأن الحق ـــ سبحانه ـــ لا يظلم الناس مثقال ذرة .

يقول الدكتور / محمد الأمين الخضري : " والحق أن الكلمتين متغايرتين وعطف الهضم على الظلم من عطف الترقي بنفي الأعظم وهو الظلم الذي يذهب بالحق كله، فلا يثاب على الطاعة أو يعاقب بغير معصية، ثم بنفي الأدنى وهو نقصان الثواب وهضم بعض الحق تأكيداً للعدل الإلهي في مقام يوهم العجز عن الدفاع عن النفس والمنافحة عن الحق، فقد سبق الآية ذكر بعض مشاهد القيامة وما تعانيه الأنفس من الأهوال، وما يحل عليها من الرهبة والفزع : (وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا) . [3]

فالخلق كلهم مأخوذون بجلال الموقف والرهبة تملأ قلوبهم وتعقد ألسنتهم فلا تسمع إلا شفاعة من أذن له الرحمن بالشفاعة، وذلك مقام يتطلب التأكيد على أن الرهبة والعجز وقبول الشفاعة ممن يشاء لمن يشاء لا يقدح في عدالته، ولا يحق أن يتسرب إلى النفوس أدنى شك في النقص من الحقوق فضلاً عن ضياعها، فنفي الظلم الذي هو أعظم الغبن لا ينفي أدناه من الغبن اليسير بالنقصان في بعض الحقوق، فجاء العطف على سبيل الترقي من نفي الأعلى إلى الأدنى دفعاً لأي توهم، وتأكيداً لعدل الحق تبارك وتعالى" . [4]

---

(١) الكهف : ٣٣

(٢) التحرير والتنوير ١٦ / ٣١٣ .

(٣) طه : ١٠٨ – ١١١ .

(٤) الإعجاز في نسق القرآن، د/ الخضري ص ٢١٨، ٢١٩ .

وقد تآزرت الأساليب البلاغية في الآية الكريمة لتأكيد هذا المعنى، ومن ذلك صياغة الآية بأسلوب الشرط والجواب : (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) ؛ تحقيقاً للوعد، وهو نفي الظلم والهضم، والتأكيد على العدل الآلهي. (١)

١٦- الفرق بين البخس والرهق :

ومما هو قريب من الظلم والهضم قوله تعالى على لسان الجن : (وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا) (٢)

قال الراغب : " البخس : نقص الشيء على سبيل الظلم، قال تعالى:(وهم فيهالايبخسون) ، وقال تعالى : (ولا تبخسوا الناس أشياءهم)، والبخس والباخس : الشيء الطفيف الناقص، وقوله تعالى : (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ) قيل معناه باخس أي : ناقص، وقيل مبخوس، أي : منقوص، ويقال تباخسوا أي : تناقصوا،وتغابنوا فبخس بعضهم بعضاً " . (٣)

والرهق : الظلم بذلة وقهر، قال الراغب : " رهقه الأمر : غشيه بقهر، يقال : رهقته وأرهقته نحو، ردفته وأردفته، وبعثته وابتعثته، قال تعالى (وترهقهم ذلة)، وقال أيضاً : (وأرهقه صعوداً) ومنه أرهقت الصلاة إذا أخرتها حتى غشي وقت الأخرى " . (٤)

فالمراد بـ " البخس " : الغبن في الأجر والثواب، والمراد بـ " الرهق" : الإهانة والمذلة .. والمقصود من الآية تأكيد عدالة الله المطلقة وإظهار ثقة المؤمنين بها .

قال البقاعي : " فَلَا يَخَافُ بَخْسًا، أي : نقصاً وقلة وخبثاً ونكداً في الثواب والإكرام بوجه من الوجوه (وَلَا رَهَقًا) أي : مكروهاً يلحقه فيقهره لأنه لم يفعل مع أحد شيئاً من ذلك ليجازي عليه، فهذا حث للمؤمن على اجتناب ذلك لئلا يجازى به " . (٥)

---

(١) راجع : التحرير والتنوير ١٦ / ٣١٢ .

(٢) الجن : ١٣ .

(٣) المفردات للراغب ص ٣٨ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٠٤ .

(٥) نظم الدرر للبقاعي ٨ / ١٩١ .

ومن دقة النظم في الآية الكريمة، اقتران جواب الشرط بالفاء في قوله تعالى : (فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا) مع أن ما بعد الفاء (فعل)، وهذا من مواضع الجواز لا الوجوب .

والسر في اقتران جواب الشرط بالفاء هنا : التأكيد لأن الجملة ستصبح اسمية، والتقدير : فهو لا يخاف، وهذا يدل على تأكيد وتحقيق سلامة المؤمن من خوف البخس والرهق، ويدل على اختصاصه بذلك دون غيره الذي لا يؤمن بربه " فتقدير المسند إليه قبل الخبر الفعلي يقتضي التخصيص تارة والتقوى تارة أخرى، وقد اجتمعا هنا كما أشار إلى ذلك الزمخشري في الكشاف، فكان دالاً على تحقيق أن المؤمن ناج لا محالة، وأنه هو المختص بذلك دون غيره . [1]

١٧-الفرق بين السنة والعام

قال تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) [2]

قال الزمخشري : " فإن قلت : فلم جاء المميز أولاً بالسنة وثانياً بالعام ؟ قلت : لأن تكرير اللفظ الواحد في الكلام حقيق بالاجتناب في البلاغة إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض ينتحيه المتكلم من تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك " [3]، وقد تبعه في ذلك كثير من المفسرين !!!

وقال أبو السعود : " واختلاف المميز لما في التكرير من نوع بشاعة " . [4]

وقال ابن عاشور : " وأوثر تمييز ألف بسنة لطلب الخفة بلفظ سنة، وميز خمسين بلفظ " عام" ؛ لئلا يكرر لفظ سنة " . [5]

---

(١) راجع : الكشاف ٤ / ٦٢٩، والتحرير والتنوير ٢٩ / ٢٣٥ .

(٢) العنكبوت : ١٤ .

(٣) الكشاف ٣ / ٤٥٠ .

(٤) تفسير أبي السعود ٧ / ٣٣ .

(٥) التحرير والتنوير ٢٠ / ٢٢٢.

وأحسب أن هذه الآراء بعيدة عن مقصد النظم القرآني،فكل لفظة في القرآن لها مدلول دقيق ومعنى خاص، ونكتة بلاغية يتطلبها السياق، أما مراعاة الخفة، أو تجنب التكرار، ونحو ذلك ؛ فهذه تعليلات واجتهادات سطحية لا ترقى إلى إعجاز القرآن وعلو بلاغته .

وقد حاول بعض العلماء الاجتهاد لبيان الفرق بين " السنة " و" العام " وذكروا أقوالاً، منها ما قاله أبو هلال العسكري، : أن السنة من أول يوم عددته إلى مثله ... والعام : لا يكون إلا شتاءً وصيفاً، وفي التهذيب: العام : حول يأتي على شتوة وصيفة، وعلى هذا فالعام أخص من السنة وليس كل سنة عاماً، فإذا عددت من يوم إلى مثله فهو سنة، وقد يكون فيه نصف الصيف ونصف الشتاء، والعام لا يكون إلا صيفاً أو شتاءً متواليين " . (١)

وقيل : إن لفظ " السنة " يستعمل ــ غالباً ــ في الشدة والقحط والجدب، ولفظ " العام" يستعمل ــ غالباً ــ في الرخاء والخصب .

قال الراغب : " أكثر ما تستعمل " السنة " في الحول الذي فيه الجدب والشدة يقال : أسنت القوم، أصابتهم السنة، قال الشاعر :

لها أرج ما حولها غير مسنت

وقال آخر

فليست بسنهاء ولا رجبيـــة

... ولهذا يعبر عن الجدب بالسنة، ويعبر عن الرخاء والخصب بالعام " . (٢)

وأميل إلى هذا الرأي ؛ لتوافقه مع كثير من الآيات التي وردت فيها لفظ " سنة" و"عام" في القرآن الكريم .

وإذا تتبعنا الآيات التي ورد فيها ذكر " سنة" و"عام" نلحظ الآتي :

أولاً : أن الآيات التي ذكرت فيها " السنة" ــ بصيغة الإفراد أو الجمع ــ يغلب عليها معنى

---

(١) الفروق اللغوية ص ٢٧١ .

(٢) المفردات للراغب ص ٢٤٥، ٣٥٤ .

الشدة والمعاناة، سواء أكانت معاناة خير أو شر، وقد ورد لفظ "السنة" في القرآن الكريم عشرون مرة، منها قوله تعالى :

١-(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ) [١]، فهي سنوات شداد صعاب لأنها سنوات عذاب .

٢- (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا) [٢]، فهي سنوات شدة ومشقة وتعب .

٣- (فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) [٣]، وهل هناك معاناة وشدة أعظم من سنوات السجن؟!

٤-(فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ) [٤] أي : يعانون من التيه وشدته.

٥- (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً) [٥] فهو في كل سن كان يتعلم والتعلم يستلزم المعاناة

ثانياً : أن الآيات التي ذكر فيها لفظ " العام " يغلب عليها معنى الرخاء واليسر، وقد ورد لفظ العام ــ مفرداً ومثنى ــ عشر مرات، منها قوله تعالى :

١-(ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ) [٦] أي أن هذا العام يأتيهم الغيث والخصب والرفاهية، ويعصرون ما كانوا يعصرونه من الأعناب والزيتون وغيرها، فهو عام رخاء .

٢-(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ) [٧] فإرضاع الأم لوليدها، لا معاناة فيه بل

---

(١) الأعراف : ١٣٠ .

(٢) يوسف : ٤٧ .

(٣) يوسف : ٤٢ .

(٤) المائدة : ٢٦ .

(٥) الأحقاف : ١٥ .

(٦) يوسف : ٤٩ .

(٧) لقمان : ١٤ .

هو غاية السرور والحب والفرح بالوليد خلال فترة الرضاعة، فالرضيع يسر والأم المرضع تسر كذلك .

وبناء على ما سبق، قال السهيلي في الروض الآنف : " وقوله ـــ سبحانه ـــ في قصة نوح : (فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا) قيل : إنما ذكر أولاً السنين ؛ لأنه كان في شدائد مدته كلها إلا خمسين عاماً منذ جاءه الفرج وأتاه الغوث " . (١)

وقال البقاعي : " وعبر بلفظ " سنة" ؛ ذماً لأيام الكفر، وقال : (إلا خمسين) فحقق أن ذلك الزمان تسعمائة وخمسون من غير زيادة ولا نقص مع الاختصار والعذوبة، وقال : (عاماً) إشارة إلى أن زمان حياته ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد إغراقهم كان رغداً واسعاً حسناً بإيمان المؤمنين وخصب الأرض " . (٢)

وعلى هذا إذا تأملت الحالين اللذين عاشهما نوح ـــ عليه السلام ـــ وهي زمن اللبث في قومه والزمن الآخر ؛ وجدت التمييز بلفظ " سنة" في حال الإنذار مناسباً لذلك المعنى ؛ لأن نوحاً ـــ عليه السلام ـــ لقي من قومه الإيذاء والعناد والصلابة والسخرية، وصادف قلوباً قاسية، بدليل قوله تعالى : (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا) ... فهي سنوات معاناة وشدة .

وأما الخمسون " عاماً " فلم تكن كذلك، فقد عاشها نوح مع قومه المؤمنين بعد هلاك الكافرين بالطوفان الذي أغرقهم في رغد وسعادة وسعة .

١٨- الفرق بين الولي والنصير.. والسادة والكبراء

قال تعالى : (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا يَوْمَ

(١) الروض الآنف للسهيلي ٢ / ٦٦ .

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥ / ٥٤٣ .

تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا) [1]

كان المشركون يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت قيام الساعة استعجالاً على سبيل الهزء، وكان اليهود يسألونه امتحاناً ؛ لأن الله عمى عن وقتها في التوراة وفي كل كتاب، فأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يجيبهم بأنه علم قد أستأثر الله به فلم يطلع عليه ملكاً ولا نبياً، ثم بين لرسوله أنها قريبة الوقوع، تهديداً للمستعجلين، وإسكاتاً للممتحنين (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا)، وبين جزاء الكافرين يوم القيامة وما يلاقونه من عذاب . [2]

وجملة (لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) حال من ضمير (خالدين)، أي : خالدين في حالة انتفاء الولي والنصير عنهم، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون . [3]

قال العسكري : " والفرق بين الولي والنصير : أن الولاية، هي النصرة لمحبة المنصور لا للرياء والسمعة ؛لأنها تضاد العداوة .. والنصرة : تكون على الوجهين .. فالولاية تكون بإخلاص المودة، والنصرة تكون بالمعونة والتقوية، وقد لا تمكن النصرة مع حصول الولاية، فالفرق بينهما بين " . [4]

قال الرازي : " وقوله : (لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) كما ذكر خلودهم بيّن تحقيقه، وذلك لأن المعذب لا يخلصه من العذاب إلا صديق يشفع له أو ناصر يدفع عنه، ولا ولي لهم يشفع، ولا نصير يدفع[5]

ثم تبين الآيات شكوى الكفار واعتذارهم وندمهم : (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا) وأنى لهم أن تقبل شكواهم، وينفع اعتذارهم، فقد أضلهم السادة والكبراء طريق الهدى وسبيل الحق. .

---

(١) الأحزاب ٦٣ – ٦٧ .

(٢) الكشاف ٣ / ٥٧١ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٢ / ١١٥ .

(٤) الفروق اللغوية ص ١٨٩ .

(٥) تفسير الرازي ٢٥ / ٢٠٠ .

وفرق ابن عاشور بين " السادة " و" الكبراء" فذكر أن السادة : هم عظماء القوم والقبائل مثل الملوك والأمراء .. والكبراء : جمع كبير وهو عظيم العشيرة، وهم دون السادة، فإن الكبير يطلق على رأس العائلة، فيقول المرء لأبيه : كبيري، ولذلك قوبل قولهم : (يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا) بقولهم : (أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا) . (١)

وعلل الألوسي السر في الجمع بين السادة والكبراء، فقال : " فالسادة والكبراء متغايران، والتعبير عنهما بعنوان السيادة والكبر، لتقوية الاعتذار .. وقدموا طاعة السادة ؛ لما لهم من قوة البطش بهم لو لم يطيعوهم فكان ذلك أحق بالتقديم في مقام الاعتذار وطلب التشفي " . (٢)

قال ابن عاشور : " وجملة : (إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا) خبر مستعمل في الشكاية والتذمر، وهو تمهيد لطلب الانتصاف من سادتهم وكبرائهم فالمقصود من هذا الخبر هو الاعتذار والتنصل من تبعة ضلالهم بأنهم مغرورون مخدوعون، وهذا الاعتذار مردود عليهم بما أنطقهم الله به من الحقيقة إذ قالوا (إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا) . (٣)

١٩- الفرق بين النصب واللغوب :

قال تعالى : (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) (٤)

قال الزمخشري : " فإن قلت : ما الفرق بين النصب واللغوب ؟ قلت : النصب : التعب والمشقة التي تصيب المنتصب للأمر المزاول له، وأما اللغوب : فما يلحقه من الفتور بسبب النصب، فالنصب نفس المشقة والكلفة، واللغوب : نتيجته وما يحدث منه في الكلال والفترة " . (٥)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢ / ١١٧ .

(٢) روح المعاني للألوسي ٢٢ / ٩٣ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٢ / ١١٧ .

(٤) فاطر : ٣٤، ٣٥ .

(٥) الكشاف ٣ / ٦٢٤، والتحرير والتنوير ٢٢ / ٣١٧ .

وذكر بعض العلماء أن النصب : هو التعب الجسماني، واللغوب : التعب النفساني ... قال أبو حيان : " لا يمسنا فيها نصب : أي تعب بدن ... ولا يمسنا فيها لغوب : أي تعب نفس وهو لازم من تعب البدن " . (١)

والسر في الجمع بين نفي النصب ونفي اللغوب، هو المبالغة والتأكيد في انتفاء أي تعب أو كلال عن أهل الجنة .

ونلحظ أن النظم القرآني عبر بلفظ " المس " فقال : (لا يمسهم فيها نص ولا يمسهم فيها لغوب)، وكرر الفعل المنفي مع استلزام نفي الأول له ؛ لتأكيد انتفاء مجرد المس . (٢)

٢٠- الفرق بين العداوة والبغضاء .

قال تعالى : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ) (٣)

اقترن عطف "البغضاء" على " العداوة " في أربعة مواضع من القرآن الكريم . (٤) وهذا دليل على تغايرهما، فما الفرق بينهما ؟

قال ابن عاشور : " وقد ترك علماء اللغة بيان التفرقة بين العداوة والبغضاء وتابعهم المفسرون على ذلك، فلا تجد من تصدي للفرق بينهما سوى الشيخ ابن عرفة التونسي، فقال في تفسيره : العداوة : أعم من البغضاء ؛ لأن العداوة سبب في البغضاء، فقد يتعادى الأخ مع أخيه ولا يتمادى على ذلك حتى تنشأ عنه المباغضة، وقد يتمادى على ذلك ... والذي أرى ــ أي ابن

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٠٠، وروح المعاني ٢٢ / ٢٠٠

(٢) راجع : التحرير والتنوير ٢٢ / ٣١٧ .

(٣) الممتحنة : ٤.

(٤) قوله تعالى : (فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) المائدة / ١٤، وقوله تعالى : (وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) المائدة / ٦٤ ، وقوله تعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ) المائدة / ٩١ . وقوله تعالى : (وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا) الممتحنة / ٤ .

عاشور ـــ أن العداوة: كراهية تصدر عن صاحبها معاملة بخفاء أو قطيعة أو إضرار ؛ لأن العداوة مشتقة من العدو وهو التجاوز والتباعد، فإن مشتقات مادة (عدو) كلها تحوم حول التفرق وعدم الوئام، وأما البغضاء فهي شدة البغض، وليس في مادة (بغض)، إلا معنى جنس الكراهية ... فالبغضاء شدة الكراهية غير مصحوبة بعدو، فهي مضمرة في النفس .(١)

إذن : البغض من عمل القلوب، وهو أشد أثراً وأحكم عداء، يقول الراغب : "البغض : نفار النفس عن الشيء الذي ترغب عنه، وهو ضد الحب، فإن الحب انجذاب النفس إلى الشيء الذي ترغب فيه " . (٢)

أما العداوة : فهي التباعد والانشقاق والقطيعة والإضرار .

والسر البلاغي في عطف " البغضاء" على " العداوة" والجمع بينهما : تأكيد البراءة بين إبراهيم ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ والذين آمنوا به، وبين الكفار من قومهم حيث لم يؤمنوا بالله وحده، وللمبالغة في إظهار القطيعة والمصادقة، وتأكيد البراء . (٣)

فلو اكتفى في الآية موضع حديثنا بالعداوة، لربما توهم مجرد المقاطعة مع بقاء عاطفة الحب التي تربط بين الأبناء والآباء والإخوة، فلا يكون ذلك دليلاً على كمال الإيمان على حد قول الرسول ـــ عليه السلام ـــ (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وماله والناس أجمعين)، فلما عطف البغضاء على العداوة أفاد أن كمال إيمانهم وصدق حبهم لله ورغبتهم فيما عنده كره على نفوسهم من كانوا بالأمس أحب الناس إليهم، وأقربهم إلى قلوبهم وأرواحهم، وتلك منزلة في الإيمان لا تدانيها منزلة . (٤)

---

(١) التحرير والتنوير ٦ / ١٤٨ .

(٢) المفردات للراغب ص ٥٥ .

(٣) الإعجاز في نسق القرآن د/ الخضري ص ٢٢٠ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٢١ .

الخاتمة

بعد هذه الدراسة المباركة في رحاب القرآن العظيم، والتي كان موضوعها : (اقتران الألفاظ الموهمة بالترادف في القرآن الكريم بين السياق والدلالة) تأكد لنا براءة القرآن الكريم من هذه الظاهرة اللغوية التي تسمى بالترادف، وتبين لنا إعجاز القرآن الكريم وفصاحته ودقة ألفاظه، فكل لفظ في القرآن وضع في حاق موضعه بدقة فائقة ونظم معجز، ليؤدي دلالة محددة، ومعنى مقصوداً بحيث تؤمن أن هذا المعنى كأنما خلقت له تلك اللفظة بعينها دون غيرها .

ولا غرابة في ذلك فالقرآن هو كلام الله المعجز، والبيان الأعلى، الذي أنزله الله بلسان العرب، وبني بلبنات لغتهم، ومع ذلك فقد أعجز الخلق قاطبة وقهر من البلغاء والفصحاء القوى والقدر، وقيد فيهم الخواطر والفكر .

ثم إن هذه الفروق والدلالات المختلفة التي وجدناها بين الألفاظ الموهمة بالترادف في القرآن الكريم بعد دراسة السياق، يعد وجهاً من وجوه إعجازه، وسراً من أسرار فصاحته ودقة نظمه . وهذا ــ لعمري ــ يستلزم جهوداً متواصلة للكشف عن الكنوز والأسرار القرآنية الدفينة .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

دكتور / صلاح أحمد رمضان حسين

المصادر والمراجع

١-القرآن الكريم جل من أنزله.

٢-الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، د/ دار الفكر، بيروت ط أولى، ١٩٩٦ م ، تحقيق سعيد المندوب .

٣-أحكام القرآن للجصاص، ط / دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٠٥ هـ، تحقيق / محمد صادق قمحاوي .

٤-إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم،لأبي السعود، د/ دار إحياء التراث العربي، بيروت (بدون) .

٥-الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، د/ عائشة عبد ارحمن، ط/ دار المعارف بمصر، ١٩٧١ .

٦-الإعجاز في نسق القرآن دراسة للفصل والوصل بين المفردات، د/ محمد الأمين الخضري، مكتبة زهراء الشرق بالقاهرة، ط (أولى) ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢م .

٧-البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ط/ دار الكتب العلمية ـ بيرون، ط (أولى)، ٢٠٠١ م، تحقيق / عادل أحمد عبد الموجود وآخرون .

٨-البرهان في علو م القرآن للزركشي، ط/ دار المعرفة ـ بيروت ١٣٩١ هـ، تحقيق / محد أبو الفضل إبراهيم .

٩-بيان إعجاز القرآن للخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ط/ دار المعارف بمصر، ط(ثالثة)، تحقيق / محمد خلف الله، محمد زغلول سلام .

١٠-التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ط / الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤ م .

١١-التعريفات للجرجاني، ط/ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط(اولى) ١٤٠٥ هـ، تحقيق / إبراهيم الإبياري .

١٢-التفسير البياني للقرآن الكريم، د/ عائشة عبد الرحمن، ط/ دار المعارف بمصر، ط/ خامسة .

١٣-تفسير القرآن الحكيم، المشتهر باسم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، ط/ دار المنار بالقاهرة، ١٩٤٧م .

١٤-تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ط/ دار الفكر ــ بيرون ١٤٠١ هـ .
١٥-التفسير الكبير للرازي، ط/ دار الكتب العلمية ــ بيروت، ط(أولى)، ٢٠٠٠م .
١٦-تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي، ط/ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ٢٠٠٠م، تحقيق ابن عثيمين .
١٧-جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري، ط/ دار الفكر ــبيروت ذ٤٠٥ هـ .
١٨- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ط/ دار الشعب بالقاهرة .
١٩- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي المسماة (عناية القاضي وكفاية الراضي) ط/ دار صادر ــ بيروت .
٢٠-خزانة الأدب لابن حجة الحموي، ط/ دار الكتب العلمية ــ بيرون ــ ط (أولى) ١٩٩٨م، تحقيق / محمد نبيل طريفي، أميل بديع يعقوب .
٢١-دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، ط/ دار الكتاب العربي بيروت، ط(أولى) ١٩٩٥م، تحقيق / د التنجي .
٢٢-الدر المنثور للسيوطي، ط/ دار الفكر بيروت ١٩٩٣ م .
٢٣-روح المعاني للألوسي، ط/ دار إحياء التراث العربي ــ بيروت .
٢٤-شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية، د/ محمود توفيق سعد، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .
٢٥- صحيح البخاري، ط/ دار ابن كثير ــ اليمامة ــ بيروت ــ ط (ثالثة) ١٩٨٧م، تحقيق / د . مصطفى ديب البغا .
٢٦- فتح القدير للشوكاني، ط/ دار الفكر ــ بيروت .
٢٧- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، ط/ دار العلم والثقافة بالقاهرة، تحقيق / محمد إبراهيم سليم .
٢٨- فصول في اللغة العربية، د/ رمضان عبد التواب، ط/ دار التراث بالقاهرة، ط(اولى) ١٩٧٧م .
٢٩-القاموس المحيط للفيروزآبادي، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت .

٣٠- الكشاف للزمخشري، ط/ دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ تحقيق / عبد الرازق المهدي.

٣١- الكليات للكفوي، ط/ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ١٩٩٨م، تحقيق / عدنان درويش، ومحمد المصري.

٣٢-لسان العرب لابن منظور، ط/ دار صادر ــ بيروت ط. (أولى) ١٩٩٥ م .

٣٣-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي، ط/ دار الكتب العلمية ــ لبنان، ط(أولى) ١٩٩٣ م، تحقيق / عبد السلام عبد الشافي محمد .

٣٤- مدارج السالكين لابن القيم، ط/ دار الكتاب العربي، بيروت، ط(ثانية) ١٩٧٣ م، تحقيق / محمد حامد الفقي .

٣٥-المزهر للسيوطي، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت ــ ط(اولى) ١٩٩٨م، تحقيق / فؤاد علي منصور.

٣٦-المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي، ط/ المكتبة العلمية ــ بيروت ــ لبنان .

٣٧-معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ط/ دار الجيل، بيروت ــ لبنان، ط/ ثانية ١٤٢٠ هـ ــ ١٩٩٩م

٣٨-مفتاح دار السعادة لابن القيم، ط/ دار الكتب العلمية ــ بيروت، لبنان .

٣٩- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ط/ دار المعرفة ــ بيروت، تحقيق / محمد سيد كيلاني .

٤٠- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥ م، تحقيق / عبد الرازق غالب المهدي .

٤١-النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، ط/ المكتبة العلمية ــ بيروت ١٩٧٩م، تحقيق / طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي .

فهرس الموضوعات

المقدمة .....

الترادف في اللغة .....

الترادف في الاصطلاح .....

آراء العلماء في الترادف وموقف الدراسة من هذه القضية .....

١-الفرق بين العفو والصفح .....

٢- الفرق بين الرأفة والرحمة .....

٣- الفرق بين الدعاء والنداء .....

٤- الفرق بين الوهن والضعف . .....

٥- الفرق بين الموت والقتل . .....

٦- الفرق بين الخطيئة والإثم .....

٧- الفرق بين النشوز والإعراض . .....

٨- الفرق بين الكمال والتمام . .....

٩- الفرق بين الشرعة والمنهاج . .....

١٠- الفرق بين الاستماع والإنصات . .....

١١- الفرق بين السر والنجوى . .....

١٢- الفرق بين الخوف والخشية.....

١٣- الفرق بين البث والحزن .....

١٤- الفرق بين الأثاث والمتاع . .....

١٥- الفرق بين الظلم والهضم . .....

١٦- الفرق بين البخس والرهق . .....

١٧- الفرق بين السنة والعام . .....

١٨- الفرق بين الولي والنصير ... والسادة والكبراء . .....

١٩- الفرق بين النصب واللغوب . .....

٢٠- الفرق بين العداوة والبغضاء . .....

الخاتمة .....

فهرس المصادر .....

فهرس الموضوعات . .....